الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله

كلّية اللغة العربية وآدابها واللّغات الشرقية

قسم اللغة العربية وآدابها

محاضرات في مقياس الأنتروبولوجيا

مطبوعة بيداغوجية موجّهة لطلبة ماستر1، تخصّص أدب شعبي، السّداسي الأوّل + السّداسي الثاني

إعداد الدكتور: نبيل حويلي

السّنوات الجامعية: 2019/2018، 2020/2019، 2022/2021، 2023/2022

فهرست الدروس والمحاضرات:

رقم المحاضرة:	عنوان المحاضرة :
1	علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)
2	أصل الإنسان في ميثولوجيا الشعوب
3	التطوّرية الثقافية الاجتماعية للإنسان
4	علم الإنسان وعلاقته بالعلوم الأخرى
5	تاريخ الأنتروبولوجيا
6	الأنتروبولوجيا الطبيعية
7	الأنتروبولوجيا النفسية
8	الأنتروبولوجيا الثقافية
9	الأثنوغرافيا والأثنولوجيا والأنتروبولوجيا
10	في التكوين والانتشار
11	في الاتجاهات الأساسية لتطوّر علم الإنسان
12	الأنتروبولوجيا الاجتماعية
13	الأنتروبولوجيا الحقلية
14	الأنتروبولوجيا البنيوية والأنتروبولوجيا التأويلية

تقديم :

تحتوي هذه المطبوعة محاضرات في مقياس "الأنتروبولوجيا" وهي مطابقة إلى حد بعيد برنامج وزارة التعليم العالي مع بعض التعديلات التي اضطررنا إلى وضعها مع مسؤول تخصص ماستر أدب شعبي والفرقة المكوّنة له. ويأتي هذا التعديل بسبب تركيز محاضرات الأنتروبولوجيا على تخصّصات علوم الإنسان عامة دون الأدب، لذا قمنا بتغييرات طفيفة في المحاضرات المبرمجة لتأتي مناسبة وموضوعات الأدب الشعبي بصفة عامة وهو الأمر الذي صادقنا عليه بالموافقة. ولقد راعينا أثناء انجازنا لهذه المحاضرات الشمول والعموم والتبسيط وراعينا أيضا الترتيب المنصوص عليه في البرنامج الرّسمي المقترح، وهذا كلّه من شأنه أن ييسّر عملية تلقّي المادة العلمية البيداغوجية المتوخّاة في هذا الجهد العلمي.

قدّمنا أربعة عشر محاضرة، يختلف حجمها من محاضرة إلى أخرى طبعا حسب ما تمليه طبيعة المحاضرة ومدى توفّر المصادر والمراجع المناسبة. وسعينا فيها إلمام كلّ محاضرة إلماما علميا وافرا وكافيا استهلناها من المحاضرة الأولى التي جاءت في تعدّد مفاهيم علم الإنسان (الأنتروبولوجيا) ودلالات مضامينها، ورصدنا أيضا الأهداف التي تسعى الأنتروبولوجيا إلى تحقيقها. كما تحدّثنا في بداية المحاضرة عن تخلّق الحياة والإنسان وتأنّسه وصولا إلى الإنسان العارف، وفي ختام المحاضرة أشرنا إلى قائمة المراجع المستعان بها لكتابة محاضرتنا وضبطها، ونفس الأمر ينطبق على جميع محاضراتنا. وجاء عنوان المحاضرة الثانية: "خلق الإنسان في ميثولوجيا الشعوب"، وفيها تناولنا مفهوم الأسطورة عند شلة من الباحثين المختصّين، وأشرنا إلى مجموعة من النصوص الأسطورية التي ترجّح ظهور الإنسان على سطح الأرض، والبداية كانت من نصوص مشرقية بابلية ومصرية ونصّ أنتروبوغوني قبائلي جزائري دوّنه الأثنوغرافي الألماني "ليو فروبينيوس" (Leo Frobenius) سنة 1913، وهو نصّ فريد من نوعه، إذ إنّ كل النصوص التي تتحدّث عن الخلق اختفت وما تبقى إلا أجزاء أساطير موزّعة هنا وهناك، وأخيرا استعنا بنص أسطوري من الفايكينغ. واستعرضنا في المحاضرة الثالثة النظرية التطوّرية الثقافية الاجتماعية للإنسان والتي يتزعّمها "داروين" واستعرضنا أهمّ روادها ونظرياتهم وكذا مراحل تطوّر الإنسان خاصة عند كلّ من "لويس مورغان" (Louis Morgan) و"إدوارد تايلور" (Edouard Taylor). وتطرّقنا في المحاضرة الرابعة إلى علاقة علم الإنسان (الأنتروبولوجيا) بالعلوم الأخرى وتداخلها معها، بداية بعلم الأحياء أو البيولوجيا وعلاقتها بعلم الاجتماع، فالعلاقة التي تربطه بعلم النّفس وأخيرا بعلمي الجغرافيا والجيولوجيا.

جاء عنوان المحاضرة التالية تحت عنوان: تاريخ الأنتروبولوجيا واستعرنا فيها أهمّ المحطّات التاريخية للأنتروبولوجيا بداية من الرّحلات التي كان يقوم بها المصريون القدامى، وعند الإغريق ومحاولات "هيرودوت" وأيضا عند الصينيين والعرب وصولا إلى أوروبا أين ظهر علم الأنتروبولوجيا كعلم مستقلّ يهتمّ بدارسة الإنسان في ذاته ولذاته. وجاءت المحاضرات المتوالية في فروع الأنتروبولوجيا وأنواعها، والبداية كانت مع الأنتروبولوجيا الطّبيعية في محاضرتنا السادسة، وهو أقدم فروع الأنتروبولوجيا من حيث الظهور، ويهتمّ بدراسة الإنسان وخصائصه الجسدية والاختلافات الواضحة بين البشر على سطح الأرض، كما أحصينا العلوم التي تستمر هذا الفرع. وتناولنا الأنتروبولوجيا النّفسية في المحاضرة السابعة والتي تتحدّد في العلاقة القائمة بين الثقافة والشخصية وأشرنا إلى أهم علماء علم النفس ممّن ربطوا أعمالهم بالفولكلور مثل: "سيجموند فرويد" (Sigmund Freud) و"إيريش فروم" (Erich Fromm) وكذا "جيزا روهايم" (Géza Róheim) وأخيرا "كارل يوستاف يونغ" (Carl Gustav Yong). ونواصل استعراض فروع الأنتروبولوجيا مع الأنتروبولوجيا الثقافية في محاضرتنا الثامنة وموضوعها الرئيسي الذي يتمثّل في الثقافة، ويركّز هذا العلم على طريقة معيشة جماعة من الجماعات البشرية البدائية منها والمتخلّفة وحتى الحديثة والمعاصرة وبالتالي المتقدّمة، وترمي إلى فهم ظاهرة الثقافة وتحديد عناصرها وتبحث في التغيّر الثقافي وعمليات الاقتراض والامتزاج وصراع الثقافات، كما أشرنا إلى فروعها: علم اللّغويات وعلم الآثار القديمة وعلم الثقافات المقارن.

وعمدنا في المحاضرة التاسعة إلى تحديد مصطلحات الأثنوغرافيا (علم الناسوث) والأثنولوجيا (النياسة) وكذا الأنتروبولوجيا (علم الأناسة) وركّزنا على تحديد أهدافها وأوجه التشابه والاختلاف فيما بينها، خاصة حينما جعلها "كلود ليفي ستروس" (Claude Levi Strauss) مراحل متتالية للدّراسة الميدانية. وخصّصنا المحاضرة العاشرة في التكوين والانتشار وركّزنا على الاتجاه الانتشاري الذي يرجع نشأة الحضارة الإنسانية إلى مصدر واحد أي إلى مجتمع واحد أو مجتمعات معيّنة ومنه انتشرت عبر أنحاء العالم. حدّدنا في المحاضرة الموالية الاتجاهات الأساسية لتطوّر علم الإنسان (الأنتروبولوجيا) وركّزنا على الاتجاه الوظيفي عند كلّ من "راد كليف براون" (Radcliffe Brown) و"برونوسلاف مالينوفسكي" (Bronislaw Malinowski) واقترنت الوظيفية بالاتجاه العضوي في العلوم الطبيعية عرف الاتجاه الوظيفي في الأنتروبولوجيا الاجتماعية بتركيزه على دراسة الثقافات الإنسانية كل على حدة وفق واقعها المكاني والزمني ذلك أن الوظيفية ليست دراسة متزامنة بقدر ما هي آنية، بالإضافة إلى تركيزنا على التطوّرية الجديدة والتي ظهرت في بداية النصف الثاني من القرن العشرين للميلاد، على يدّ مجموعة من

الأنتروبولوجيين ونعني بها تلك الفلسفة الاجتماعية التي تحاول تفسير التطوّر الثقافي. وجاءت المحاضرة الثانية عشر في الأنتروبولوجيا الاجتماعية وهو فرع يهتمّ بدراسة السّلوك الاجتماعي كالعائلة ونسق القرابة والتنظيم السّياسي والإجراءات القانونية والعبادات الدّينية وغيرها ... كما تدرس هذه الأنتروبولوجيا العلاقة بين هذه النّظم في المجتمعات الإنسانية.

ولكي نفيد طلبتنا أكثر قمنا بإضافة محاضرة تحمل عنوان الأنتروبولوجيا الحقلية، لأنّها فرع مهمّ جدّا في الدّراسات الميدانية، وأحصينا الميدان وخصائصه، وأنواع الباحث الميداني والكيفية التي يجب أن يبدوَ عليها، بالإضافة إلى عدّته وأساليب الجمع وأنواع المقابلات والملاحظات. وأخيرا المحاضرة الرابعة عشر والأخيرة والتي جاءت في موضوعي الأنتروبولوجيا البنيوية والأنتروبولوجيا التأويلية، وركّزنا في الأولى على عالم الأنتروبولوجيا الفرنسي "كلود ليفي ستروس" (Claude Levi Strauss) وهو صاحب دراسة طويلة تحمل عنوان: L'anthropologie structurale أو "الأنتروبولوجيا البنيوية"، وتقوم نظريته على اعتبار النموذج اللّغوي أساسا لفهم الثقافات الإنسانية والعقل الإنساني. أمّا الأنتروبولوجيا التأويلية والتي يقودها "كليفورد غيرتز" (Clifford Geertz) فتهتمّ بدراسة الرموز في الثقافات وتحليلها ودراسة أنساقها.

ولا بدّ أن نشير إلى أنّ المصادر والمراجع المستعان بها لكتابة هذه المحاضرات أساسية ومختصّة، إذ اعتمدنا على مراجع وكتب أكاديمية منشورة وأخرى إلكترونية وذات مصداقية علمية على حسب علمنا، كما أنّها متنوّعة من مقالات وكتب وأطروحات ومجلات بالإضافة إلى المراجع المترجمة والتي كان لها النصيب الأوفر في محاضراتنا، ناهيك عن الاستعانة بالمراجع الأجنبية كون علم الأنتروبولوجيا علم غربي بامتياز. وما هذا كلّه إلاّ لتزويد طلبتنا بمفاتيح علمية يمكنهم بفضلها الإلمام بالأنتروبولوجيا ومفاهيمها وفروعها وعلاقاتها بالعلوم الأخرى ومراحلها والاتجاهات التي تدرسها دون أن ننسى علاقة هذا العلم بالأدب وهو المحور الأساس في محاضراتنا. ويمكن للطّلبة أيضا أن يستفيدوا من بعض النماذج التّطبيقية التي أرفقناها في متن أو عقب كلّ محاضرة، وتجدر الإشارة إلى أنّه ثمّة محاضرات تعمّدنا فيها الاختصار حتى لا نضطرّ لتخصيص أكثر من حصّة واحدة للمحاضرة، فعدد المحاضرات المتوقّعة هو نفس عدد الحصص المقرّرة دون الأخذ بعين الاعتبار الانقطاعات غير المتوقّعة والمتكرّرة. ولا نزعم أنّنا أحطنا المحاضرات من كلّ جوانبها فنحن بعيدون عن مجرّد استجماع كل المراجع والمعلومات المتداولة لكنّنا حاولنا إلمامها بكلّ المؤشّرات التي تساعد الباحث وتكون دليلا للطّالب.

المحاضرة (1) علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)

مقدمة:

تعتبر الأنتروبولوجيا أكثر العلوم التي تدرس الإنسان وأعماله شمولاً فهي تجمع في علم واحد بين نظرتي كل من العلوم البيولوجية والعلوم الاجتماعية، فتركز مشكلاتها، من ناحية، على الإنسان العضو الطبيعة، وعلى سلوك الإنسان العضو في المجتمع، من ناحية أخرى. وهي لا تقتصر على دراسة أي مجموعة من الناس أو أي حقبة تاريخية. بل تهتم بالأشكال الأولى للإنسان وسلوكه بدرجة اهتمامها نفسها بالأشكال المعاصرة؛ تتضمّن الأناسة اليوم بعض مناظير البحث في التطوّر وآفاقه، هذه التي أسهمت في إفهامنا ما حصل من تغيّر أساسي في عالمنا. ولا يزال التطوّر يمدّنا بالكثير من المسائل التي ما نزال بعيدين كثيرا عن معرفة أجوبتها، ولهذا السّبب بالذّات ضمّ مسألة التطوّر إلى مسألة فهم الإنسان لذاته أمرا ذا أهمية مركزية. ويدرس الأنتروبولوجي كلاً من التطوّرات البنائية للبشرية ونمو الحضارات منذ أقدم الأشكال التي وصلتنا عنها إن كانت سجلات أو بقايا أو أشكالا أخرى، فضلاً عن الاهتمام بالدّراسات المقارنة في سياق اهتمامه بالجماعات والحضارات الإنسانية المعاصرة. وقبل الشروع في تعريف الأنتروبولوجيا وتحديد أهدافها، كان لزاما علينا أن نبحث في تخلّق الحياة ونشأة الإنسان ومعرفة تاريخ تواجده على سطح الأرض.

1. تخلّق الحياة وتأنّس الإنسان:

لقد كانت الكائنات الحيّة الأولى وحيدة الخلية، وهي تقبل المقارنة بالبكتيريا، وقد نشأت بتخلّق نوعيّ كبير، والنقلة من العضويات ذات الخلية الواحدة إلى العضويات ذات الخلايا المتعدّدة والتي تتقاسم وظائفها الخلايا المتعدّدة والتي تتقاسم وظائفها خلايا متعدّدة، هي تغيّر ضارب في الأعماق ولا يزال حصوله من أسرار الحياة. ولعلّ العضويات متعدّدة الخلايا قد نشأت من جماعات الأنواع العضوية ذات الخلية الواحدة. وكان التصنيف القديم لا يميّز إلا بين عالم النبات وعالم الحيوان، وأصبحنا الآن نميّز بين خمسة عوالم هي:

- عالم العضويات وحيدة الخلية من دون نواة: طحالب البحر الزرقاء والبكتيريا.
- عالم العضويات وحيدة الخلية ذات نواة: الطحالب الذهبية، الحوينيات الطحلبية والحوينيات القصبية.

- عالم الفطر: فطر الزبدالحقيقية، فطر الطحالب، فطر الفقاقيع، الفطر ذوات السوق.
- عالم النبات: الطحالب الحمراء، النبات الطحلبي ذو الوعاء.
- عالم الحيوانات: الإسفنجيات والدود المسطح والرخويات والمحاريات والحلزونيات وذوات الأرجل المتعضية العنكبوتيات والسرطانيات والحشرات.

تأنّس الإنسان:

تعود أصول الرّئيسيات العليا أي شبائه الإنسان (Anthropoïdes) إلى غاية نهاية البداية من العصر الثالث من تقويم علم طبقات الأرض. ونجد قرب كنزو الفيوم قرب القاهرة شبائه الإنسان من الرئيسيات من عصر الأليوغوزان، ولكنّها تختلف بوضوح عن مرحلة ما قبل الإنسان (Vormensch) والإنسان الأصلي (Urmensch) مثل الإنسان القائم (Homo erectus) وعلى الأرجح كذلك الإنسان العارف (homo sapiens) وكلّها مراحل تكوّنت بإفريقيا.

الإنسان الأصل: (Urmensch)

يرجع علماء الآثار أنّ عمر إنسان بحيرة تركانا بإفريقيا يتراوح ما بين 2,5 ـ 1,8 مليون سنة، وأنّ عمر الإنسان الحاذق (سريع التكيّف) (homo habilis) يتراوح ما بين 2,5 إلى 1,5 مليون سنة، وهنا كانت تُستعمل أدوات بغية التغذية مثل الحجارة لتقطيع النباتات وتهشم لحم الفرائس وإعداده. وقد نتج عن هذه الأشكال الأولى من التخصّص الثقافي خلال تخصّص جسدي ضئيل متزامن استقلال متنام عن مجال الحياة. لكنّها لنفس العلّة أنتجت تبعية متزايدة لما يصنعه الكائن بذاته من آلات حجارية، وهنا أيضا تشكّلت أولى أشكال اللغة البسيطة، كما طالت عند الإنسان الحاذق مدّة قابلية الحمل حتّى صارت الصبايا في الغاية أكثر استعدادا للتزواج المتّصل وبالتدريج آل ذلك إلى أن صار أعضاء الجماعات يقدمون على العلاقات الزوجية.

الإنسان الأصلي: (المبكروالقائم)

توجد بقايا إحاثية من الإنسان القائم في إفريقيا وآسيا وأوروبا، وانتشارها يمتدّ من الإنسان القائم المبكر (العامل بيديه) قبل ما بين مليونين سنة إلى مليون ونصف مليون سنة مرورا بالإنسان القائم الإفريقي والآسيوي المتأخر منذ مليون ونصف إلى 0,3 مليون سنة إلى الإنسان القائم الأوروبي (إنسان هيدلبارج) منذ 800000 سنة إلى 400000 سنة. وبداية الإنسان القائم هي على الأرجح نشأة نموذج متين

مصاحب لإنسان تركانا منذ حوالي 2,5 مليون سنة في إفريقيا الشرقية. وإذا قارنا بين هذا الإنسان وإنسان بحيرة تركانا نجد أنّه قد ظهرت عنده علامات جسمية مميّزة تدلّ على تطوّر متدرّج نحو الإنسان العارف، كتضخّم حجم الجمجمة وأيضا استدارة قوس الأسنان، وهنا نشأ المشي القائم على رجلين وتحرّرت اليدان من الاستعمال المكثّف في الحركة.

الإنسان العارف: (homo sapiens)

وقبل حوالي 700000 نشأ الإنسان العارف القديم في لإفريقيا وأوروبا وآسيا وعن صدر الإنسان النياندارتالي الذي توجد بقاياه الإحاثية بين 180000 و90000 سنة في كرواتيا وإيطاليا وجبل طارق، وأخرى حصلت بين 60000 سنة و30000 سنة حصلت في ألمانيا وفلسطين وكردستان. كان جسده صغيرا كونه عاش في بيئة باردة، وكانت اللحوم مادة الغذاء الأساسية، كما تطوّرت الآلات المستخدمة في القنص والصّيد وأصبح البشر يقيمون في شكل قبائل وعشائر، كما انتشرت ممارسات شائعة بين هؤلاء كالسّحر وعادات مختلفة توحي بالتطوّر المذهل للإنسان.

وخلاصة القول إنّ تأنّس الإنسان (menschwerdung) عملية تاريخية زمنية، لا يقبل العنصر الطّبيعي والعنصر الثقافي فيها انفصال أحدهما عن الآخر، فهما عنصران متدخلان بصورة ضرورية. ذلك أنّ الإنسان لم ينتجه عامل واحد بل مجموعة من العوامل المختلفة. ويقبل تأنّس الإنسان الفهم كتطوّر النوع متعدّد الأبعاد بالانطلاق من التفاعل بين العوامل البيئية والجنّية والمخيّة والاجتماعية والثقافية.

2. تعريف الأنتروبولوجيا:

الأنتروبولوجيا كلمة إغريقية تتكوّن من مقطعين: "أنتروبوس" الّتي تعني الإنسان و"لوجوس" ويقصد منها العلم أو المعرفة ليدلّ معناها من حيث اللّفظ: "علم الإنسان"، أي العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق وأعراف اجتماعية.

ولقد استخدم العلماء القدامى كلمة الأنتروبولوجيا كما لو كانت ترادف مصطلح الأثنولوجيا ففي فترة من الفترات كانا هاذين المصطلحين يعتبران في نظر العلماء علما واحدا أو دراسة واحدة، وذلك في غضون القرن التاسع عشر (19)، بينما يعتبرهما المحدّثون علمين متميزين أحدهما عن الآخر، لذلك يمكن القول بأنّ الأنتروبولوجيا قد نشأت حقيقة في أحضان الدّراسات والكتابات الأثنولوجية/النياسية. وتتناول

الأنتروبولوجيا موضوعات مختلفة من العلوم والتخصّصات التي تتعلّق بالإنسان في أزمنة وأمكنة مختلفة، ولقد كان من الصعب جدّا أن تصول وتجول في كلّ مجالاتها نظرا لاتساعها وتعدّدها.

ويهتمّ هذا العلم بدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات البدائية وكذا المجتمعات البسيطة نظرا لاختلافهما الواضح عن الحضارات الحديثة وكذا الراقية، ولعلّ من أبرز الأسباب التي دفعت بهؤلاء الأنتروبولوجيين الأوائل بالاهتمام بتلك المجتمعات البسيطة ما يلي:

- ✓ الرّغبة في البحث عن اللّغات والعادات والتقاليد الغريبة، وبعدها توسّع نطاق الدّراسات الأنتروبولوجية ليشتمل جزءً من المجتمعات الحالية.
- ✓ تتشعّب الأنتروبولوجيا إلى مجالات أخرى حدّدها العلماء الأنتروبولوجيون في ثلاث مجالات.

وتعتبر الأنتروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة، البيوفيزيائية والاجتماعية والثقافية علما شاملا يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض، اختلاف علم التشريح عن تاريخ تطوّر الجنس البشري والجماعات العرقية، وعن دراسة النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية وقرابية ودينية وقانونية، ... وكذلك عن الإبداع الإنساني في مجالات الثقافة المتنوّعة التي تشمل التراث الفكري وأنماط القيم وأنساق المجتمعات الإنسانية المختلفة، وإن كانت لا تزال تعطي عناية خاصة للمجتمعات التقليدية. وهو ما يؤكّده المختص في دراسة الثقافة "تايلور" الذي يرى أنّ الأنتروبولوجيا هي الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان، إذ تحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للإنسان، وما اكتسبه في محيطه الاجتماعي.

وحدّدها بعضهم في أربعة مجالات : الأنتروبولوجيا الطّبيعية، النفسية، الثقافية والاجتماعية.

ولقد تحدّث "جاك لومبار" (Jack Lombard) عن علم الأناسة/الأنتروبولوجيا وذكر بأنّها تلك المرحلة التي يتمّ فيها تفسير العادات والمؤسسات، وهي مرحلة التأليف الذي كثيرا ما يُنجز عن طريق المنهج المقارن، ويمكننا القول بأنّ هذا العلم يعبّر عن مفهومين مختلفين هما على التوالي:

أ/ الأناسة بمعنى النياسة، أي بوصفها علما بالمؤسسات أو التنظيمات أو المعتقدات أو التقنيات، وهو المفهوم الذي تعتمد عليه المدرسة الانجليزية.

ب/ والأناسة بمعناها الأشمل، والذي اعتمد عليه "كلود ليفي ستراوس" (Claude Levi Strauss) وطلبته الذين جاؤوا بعده، إذ يعتبرون هذا الفرع المعرفي بمثابة المرحلة الأخيرة من المنهج النياسي، باعتباره مرحلة

جمع المعطيات وبعدها تأتي مراحل الجمع والدّراسة والتأليف التفسيري والتحليلي ومن ثم فتح مجال للمقارنة. وجعل "كلود ليفي شتراوس" الأناسة/الأنتروبولوجيا: المرحلة الثالثة من الجمع الميداني بعد مرحلتي: "النّاسوث" (الأثنوغرافيا) و"النياسة" (الأثنولوجيا) وهي بذلك تتطلّع إلى تكوين معرفة قابلة للتطبيق على التطور البشري بأسره، وتسعى إلى استخلاص نتائج إيجابية أو سلبية صالحة للتعميم على كل المجتمعات البشرية.

وظلّت الأنتروبولوجيا ولمدة طويلة جدا تعتمد على اختيارها لنوعية معينة من النماذج المجتمعية التي تدرسها، وقد كان النموذج المختار للدراسة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على الأرجح هو المجتمع الذي يوصف بأنّه بدائي، لأنّه مجتمع صغير نسبيًا ومحدود الكثافة تسهل دراسته كلية شاملة. ولكن مع مرور الوقت أصبحت الأنتروبولوجيا تعتمد على ما يسمى بالبحث الحقلي (field research) أو المعاينة الميدانية للنموذج المختار للدراسة. حيث انتهى عهد الأنتروبولوجيا النظرية وأصبحت الدراسة الميدانية هي الحقل التجريبي لهذا العلم كبقية العلوم الأخرى التي تعتمد على التجربة المخبرية.

تعرّف الأنتروبولوجيا –إذن- على أنّها علم يدرس الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا، فهي بهذا المعنى لا تدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته أو منعزل عن أبناء جنسه، إنّما تدرسه بوصفه كائنا اجتماعيا بطبعه، كما تدرس الإنسان في كل زمان ومكان، فهي لا تقصر نطاقها في مرحلة تاريخيّة محدّدة بالذّات، وإنّما تهتمّ بالأشكال الأولى والمبكّرة للإنسان وأجداد وأصوله منذ أقدم الأزمنة حتّى يومنا هذا، كما أنّها تهتمّ بتاريخ الشعوب والحضارات التي تفتقر إلى التّاريخ المسجّل والمدوّن، ونمو الحضارات منذ أقدم الأشكال التي وصلتنا عنها السجّلات أو البقايا.

3. أهداف الأنتروبولوجيا:

تحقّق الأنتروبولوجيا مجموعة من الأهداف، يمكن حصرها على النحو التالي:

- إنّ الهدف الأسمى للأنتروبولوجيا كما هو متّضح أعلاه، هو دراسة الإنسان وأعماله ونشاطاته ضمن النوع البشري، وما طرأ عليه من تغيّرات وتطوّرات بتأثير عوامل طبيعية وأخرى اجتماعية.
- تصف الأنتروبولوجيا مظاهر الحياة البشرية والحضارية عن طريق المعاينة المباشرة ومعايشة الباحث المجموعة المدروسة وتسجيل تصرّفات أفرادها وتعاملاتهم اليومي ونشاطاتهم العادية.

- تقوم الأنتروبولوجيا بتصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية، وهذا بعد دراستها دراسة واقعية للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، وحسب الترتيب التطوّري والحضاري للإنسان عبر مراحل معيّنة ابتداءً من كونه بدائيا إلى أن وصل إلى ما عليه حاليا.
- تحدّد الأنتروبولوجيا أصول التغيير الذي يحدث للإنسان وأسباب هذا التغيّر وعملياته بطريقة علمية دقيقة، ويكون ذلك عن طريق الرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر فالمستقبل من خلال دراسة مقارنة. وهو الأمر الذي ينتج عنه مؤشّرات وتوقّعات التغيّر المحتمل في الظواهر الإنسانية بغية التنبّؤ بمستقبل المجتمع الإنساني والجماعات البشرية التي أُجريت عليها الدّراسات وعاينتها.
- تهتمّ الأنتروبولوجيا بدراسة الظواهر المجتمعية انطلاقا من المجتمعات الصغيرة وصولا إلى المجتمعات الكبيرة، ومتابعة مراحل تطوّرها وما نال منها من تغيّرات وإيجاد القواسم المشتركة فيما بينها بعيدا عن التطرّف والتعصّب والأحكام المسبّقة التي تحكمها أيّة أصول علمية.

وصفوة القول إنّ اهتمام الأنتروبولوجيا بدراسة المجتمعات الإنسانية كلّها وعلى مستوياتها الحضارية، يعتبر المنطلق الأوّل والرئيسي في فلسفة علم الأنتروبولوجيا وأهدافها، إذ أثبتت الكثير من الظواهر الخاصة بنشأة الإنسان وطبيعته ومراحل تطوّره الثقافية والاجتماعية تشابه الشعوب البشرية في طبيعتها الأساسية ولاسيما في النواحي العضوية والحيوية. وتحاول الأنتروبولوجيا كشف وتوصيف المعايير الفيزيقية، التي تميز الجنس البشري عن سائر الكائنات الحية الأخرى؛ وكذلك تلك المعايير التي تصلح للتمييز بين الأنواع العديدة داخل الأسرة البشرية نفسها. وتركز الدراسة المقارنة للحضارات اهتمامها على أوجه الاختلاف والتشابه في الثقافات، التي يمكن ملاحظتها بين الجماعات البشرية العديدة التي تعيش على سطح كوكب الأرض، وتحاول أن تحدد وتعرف القوانين أو المبادئ التي تحكم تكون المجتمعات البشرية وثقافاتها وتطورها.

قائمة المصادروالمراجع:

- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، إتحاد كتّاب العرب، ط1، دمشق، 2004.
- كريستوف فولف، علم الأناسة، التاريخ والثقافة والفلسفة، ترجمة: أبو يعرب المرزوقي، دار المتوسّطة للنشر، أبو ظبي، الإمارات العربية المتّحدة، ط1، 2009.
- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الأنتروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي للحديث (جامعة أسيوط)، الإسكندرية، ط2، دت.

- نخبة من أعضاء هيئة التدريس، تح: محمّد عباس إبراهيم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2009 .
- أحمد أبو زيد، محاضرات في الأنتروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، 1997.
- محمد الخطيب، الأثنولوجيا، -دراسة عن المجتمعات البدائية-، دار علاء الدين، دمشق، ط2، 2010.
- كلود لفي ستراوس، الإناسة البنيانية، تر: حسن قبيسي، المركز الثّقافي العربي، ط1، بيروت، 1995.
- حسين فهيم، قصّة الأنتروبولوجيا: فصول في تاريخ الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، العدد 198، الكويت.
- Jean Copans, Introduction à l'Ethnologie et à l'Anthropologie, Nathan, Paris, 1996.
- Jean Cuisenier, Ethnologie de l'Europe, Paris, PUF, 2007.

المحاضرة رقم 2

خلق الإنسان في ميثولوجيا الشعوب

1. تعريف الأسطورة:

هناك مساءلات عديدة بشأن الأسطورة من حيث معناها ومغزاها، ومن حيث مصادرها الأولى التي أُنشأت في ضلّها، فضلا عن ماهية الأسطورة في حدّ ذاتها، ولعلّه ليس من السهولة بمكان أن نقف عند تعريف دقيق وشامل للأسطورة في ضوء ذلك التّعدد والتّنوّع الذي تمثله تلك المشارب الإنسانية عبر الأزمنة والأحقاب، من منطلقات ورؤى فكرية متعدّدة. ومع ذلك يمكن أن نقف عند الملامح العامة التي تقرّبنا من التعامل مع الأسطورة من حيث الماهية والمصطلح بالدّرجة الأولى.

1.1 لغةً: وُرد في معجم "الصّحاح" وُرد ما يلي: "السَّطْرُ، الصَّفُ من الشيءِ، يُقالُ: بَنَى سَطْرًا، وغَرَسَ سَطْرًا. والسَّطْرُ، الخطُّ والكتابةُ، وهو في الأصلِ مصدر، والسَّطْرُ بالتَحريكِ، مثله قال:

مَنْ شَاءَ بايَعتهُ مالِي وخلعتهُ ψ مَا تُكْمِلُ التَيمُ في ديوانهمْ سَطْرًا."

وجاء في "لسان العرب "لابن منظور" عن جذر "سطر": "السّطْرُ والسَطَرُ: الصّف من الكتاب والشّجر والنّخل. وقوله تعالى: "وقالوا أساطير الأوّلين" (خبر لابتداء محذوف) معناه: ما سطّره الأوّلون وواحد أسطُورةٌ، كما قالوا: أحدوثة وأحاديث، وكما تقول: أقصوصة، أقاصيص. "وسطَرَ يَسْطُرُ إذا كتب، قال الله تعالى: "ن، والقلم وما يَسْطُرُون" أي ما تكتبه الملائكة، وقد سَطَرَ الكتاب يَسْطُرُهُ سَطْرًا، وسَطَرَهُ واسْتَطَرَهُ، وفي التنزيل: "وكلّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَّرٌ". ويُقالُ: سَطَرَ فلانٌ فلانا بالسّيف، إذا قطعه به كأنّه سطْرٌ مسْطُورٌ، ومنه قيل لسيف القصّاب: سَاطُورٌ."

أمّا معجم "تاج العروس" فلقد أورد ما يلي: "أُسْطُورَةٌ وأُسْطِيرٌ وأُسْطِيرَةٌ إلى العشرة، يقال: "سَطْرٌ"، ويُجمع إلى العشرة "أَسْطَارًا"، ثم أساطيرُ جمع الجمع وقيل: "أساطيرٌ": جمع سَطْرٍ على غير قياسٍ. وسَطَرَ تسطيرًا: ألّف الأكاذيب، سَطَرَ علينا: أتانا وفي الأساس: قصّ، سَطَرَ فلانٌ علينا إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل، يقال: هو يُسْطَرُ ما لا أصل له، أي يؤلّفُ". وبعد سرد مجموعة من تعريفات أمّات المعاجم العربية، والتي أفادتنا عن مادة (س،ط،ر) يتبيّن لنا أن كلمة الأسطورة كانت تحمل عند العرب القدامى معاني وإيحاءات دلالية متعدّدة أهمّها النّظام والثبات في عملية التسطير والتأليف، الذي يرتكز على

الخيال والتخيّل، وتزيين الكلام وتنميقه وزخرفته، ممّا يسمح باختلاط الصّحيح بالباطل والتباسه به، وبذلك تصبح الأسطورة عند القدماء ترادف الأباطيل، وتوحي مادة (س،ط،ر) بالاستمرارية من خلال ما يخلفه فعل التسطير في الأرض أو على الورق وغيره، وعليه فإنّ هذه الدّلالات اللّغوية (الثبات والنّظام والاستمرار) يمكن أن نعتبرها من خصائص الأسطورة.

الأسطورة في المعاجم والموسوعات الغربية:

كما ترد كلمة "الأسطورة" في المعاجم والموسوعات الغربية بمصطلحين اثنين هما: الأسطورة (Le mythe) وكذلك العلم الذي يدرس الأساطير (La mythologie) والمصطلح الأوّل مشتقّ من الكلمة الإغريقية (Mythos) أو الكلمة اللاتينية (Muthus) والتي كانت تعني عند القدماء حكاية شعبية أو خرافية أنتجتها التصورات الإنسانية وتداولتها للإجابة عن تساؤلات طرحها على نفسه نتيجة تفاعله مع ظواهر الكون أو الطّبيعة أو قصد تنظيم حياته، وتكون في قالب سردي شفوي قوامها قناعة يقينية ذات طابع قدسي، تزخر برموز غيبية ماورائية، تصوّر ما يختلج في عقل الإنسان أو وجدانه خلال تفاعله القلق مع الكون ومظاهره، الأمر الذي جعل الأسطورة تحفل أساسا بالآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال الخارقين وما يربطهم بالإنسان، وكذا محاولة استفسار وفكّ أسرار التواجد الطّبيعي.

2.1. اصطلاحًا:

سنحاول أن نقدّم مفهوما وافرا لمصطلح الأسطورة كونها واقعة ثقافية بالغة التعقيد تمكننا من أن نباشر تفسيرها على ضوء متطورات متعدّدة، وكونها قد جسّدت الفكر الإنساني في بداياته بحثا عن الحقيقة وفكّ المجاهيل التي تحيط بالإنسان البدائي الذي وقف عاجزا عن إدراك الوجود والماورائيات، فوجد في الأسطورة ما يغنيه عن مشقّة البحث ومغبّة السؤال، فكان خالقها ومبدعها.

إنّ الأسطورة مصطلح غامض الدلالة، كونه متعدّد الدلالات ومعناه يتغيّر من علم إلى آخر وبل من اختصاص إلى اختصاص آخر، ذلك أنّ سائر العلوم الإنسانية تستثمره، وكلّ الإيديولوجيات توظّفه، ولقد أبدى الفيلسوف الأمازيغي القروسطي "القديس أوغسطين"[1] التعبير عن هذا الارتباك في فهم ماهية الأسطورة حين قال: "إنّني أعرف جيدا ما هي بشرط ألا يسألني أحد عنها، ولكن إذا سئلت وأردت الجواب،

[1] القديس "أوغسطين" (Saint-Augustin) مفكر وأديب أمازيغي جزائري ريطوريقي، ولد بمدينة "تغست" (Tagast) بناحية سوق أهراس سنة 354 للميلاد، وسميت الكاتيدرالية الكنائسية بعنابة باسمه تخليدا له ولأعماله وإسهاماته الكبرى في مجال الفلسفة والمنطق.

فسيعتريني التلكؤ". ومعنى هذا أنّ تعريف الأسطورة يعاني من اضطراب دائم، ذلك لأنّ الدارسين والمتخصصين يختلفون في محدداته، ولم يتّفقوا على تعريف جامع مانع، بل تعدّدت التعاريف وفيها ما يتّفق وفيها ما يختلف.

فعندما خُلق الإنسان رفع رأسه إلى السّماء ورأى نجومها وحركة كواكبها، وأدار رأسه فيما حوله فرأى الأرض وتضاريسها وما عليها من نبات وحيوانات وحشرات وسائر الكائنات الحيّة. كما أرعبته الصواعق، وخلب لبّه الرعد والبرق، وداهمته الأعاصير والزلازل والبراكين ولاحقته الضواري، ليلحظ الموت وهو قائم أمامه، كما عاين الحياة وعن ضرورة الاستمرار في مجاورتها، كما توالت وتتابعت الألغاز والأحجيات على أذهانه، وأخذ الغموض يجتاحه لحظات الأمن والاستقرار وزوال الخوف، واستخدم لذلك عقله وجعله متّسعا قصد التأمّل، فبدأ يتساءل ويقول في نفسه: لماذا نعيش؟ ولماذا نموت؟ لماذا خُلق الكون وكيف؟ ومن أين تأتي الأمراض؟ ويضيف "جيلبر دوراند" (Gilbert Durand) مجموعة من الأسئلة التي لا يستطيع العلم أن يجيب عنها من قبيل: من أينا أتينا؟ ما هو مصيرنا بعد الموت؟ لماذا العالم؟ ونظام العالم؟ لماذا المعاناة؟ وغيرها من التساؤلات،.. والتي تفيد ماهية تواجده على سطح الأرض وعن سرّ ذلك

ويخلص "فراس السواح" تعريفاته للأسطورة بقوله: "إنّ الأسطورة هي حكاية مقدّسة، ذات مضمون عميق يشف على معانٍ ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان". والملاحظ من خلال النقاط التي أشار إليها هذا المؤرخ، إلمامه بمختلف الجوانب التي تسير وفقها الأسطورة هذا الشكل الذي لا طالما يقدّم إلى البشر مجموعة من القيم وكذا الحس بالأمان والاطمئنان.

وما يمكن لنا أيضا أن نضيفه في مجموع التعريفات المقدّمة، الرأي الذي جاء به "لوك بنوا" (Luc Benoist) والذي يرجع أصل كلمة أسطورة إلى جذر يعني في الأصل "أبكم وصامت" "موتوس/Mutus" وفكرة الصمت هذه ترتبط بالأشياء التي لا يمكن التعبير عنها بطبيعتها إلا بالرّموز، فكلمتا "أسطورة وسر" نابعتان من إيديولوجية باطنية واحدة وطبيعتهما ناجمة عن أصلية وضرورة واحدة. ويفيد هذا التعريف بفكرة مفادها أن الإنسان فيما مضى كان يعبّر عن الأشياء بواسطة صمته وهو بذلك يربطه بالرموز التي تعبّر عن الأساطير في حدّ ذاتها.

وهناك من يستعمل مصطلح "الميث" بدلا عن مصطلح "الأسطورة"، الأمر الذي ذهب إليه الباحث العربي "عبد الحميد يونس" الذي يذكر أن الدوائر المعرفية والعلمية العربية، قد وافقت على استخدام كلمة "أسطورة" كمقابل للمصطلح الغربي (Mythe) وهو مصطلح من أصل لاتيني (Mythus) و(Myth)

باللّغة الانجليزية، بينما يرى الباحث المغربي "محمّد أوسوس" والذي يحذو حذو المفكر الإسلامي الجزائري "محمّد أركون" أنّ استعمال مصطلح "الميث" أنجع من استخدام مصطلح "الأسطورة، وذلك تفاديا للالتباس الذي يثيره مصطلح الأسطورة العربي المثقّل بحمولة سلبية تستوعبه كمجرّد أباطيل أو حديث في السياق الثقافي اللّغوي للعربيّة. وورد عن معجم الأساطير أن الميثولوجيا هو العلم الذي يدرس الأسطورة، إذ إنها تهدف إلى تفسير شيء ما في الطبيعة، كنشوء الكون أو أصل الرعد والبرق أو الزلزال أو العاصفة بما في ذلك أصل الكائنات الحيّة المتواجدة على سطح الأرض، ومن هذا التفسير العلمي (البدائي) للعالم المحيط تفطّن الإنسان إلى ضرورة السيطرة على بيئته لكي لا ترتدّ وبالتالي إقامة عبادات أساسية تحت مساعدة مجموعة من العوامل. وخلاصة القول: إنّ الأسطورة والميث في حدّ ذاتيهما يعبران عن نفس الدلالة والمعنى في فهم واستيعاب المظاهر الكونية وكيفية حدوثها بالإضافة إلى التساؤل عن أصل الكائنات الحيّة، بينما تعتمد الميثولوجيا على دراسة الأساطير التي تميّز حضارة من الحضارات.

وما نلحظه -إذن- من مجموع التعريفات التي أوردناها أن مصطلح الأسطورة في حقيقة الأمر، يتأرجح بين مفهومين يختلفان اختلافا كبيرا يصل إلى حدّ التناقض، وهما المفهوم الاصطلاحي والمفهوم الشعبي غير التخصصي الذي ينظر إلى الأسطورة بعين الشك والريبة فهي بذلك ترادف الباطل والأكاذيب، وهي كل خطاب لا يقبله العقل أو المنطق وإن شغف النّفس سحره وعجائبيته، ومردّ هذه النظرة المرتابة هو إيحاءات كلمة "أسطورة" في النّصّ القرآني حيث تكرّرت عبارة "أساطير الأوّلين" وهذا أثناء الحديث عن الأخبار القديمة المنسية والمندثرة.

ويمتزج عالم الظواهر بما في ذلك الإنسان والحيوان والنبات ومظاهر طبيعية، لعالم ما فوق الطّبيعة من قوى غيبية، اعتقد الإنسان بألوهيتها، فتعدّدت في نظره الآلهة تبعا لتعدّد مظاهرها المختلفة. فالأسطورة تحمل بين ثناياها معنى التفسير والتعليل، لأنّها محاولة من الإنسان البدائي فهم الظواهر والحوادث التي عجز الإنسان عن تفسيرها.

وفي الأخير: وحتّى لا نستطرد في عرض كل التّعريفات الكثيرة الرائجة التي تبدو أنّها بقدر عدد المهتمين بالميثولوجيا من مؤرخي الأديان والباحثين الإثنولوجيين والأنتروبولوجيين ودارسي الفولكلور بصفة عامة، لذا سنحاول أن نقدّم تعريفا نراه أقلّ التعريفات نقصا، لأنّه أوسعها، فالأسطورة حسب مؤرخ الأديان الشهير "مرسيا إلياد" (Mircea Eliade) تروي حكاية مقدّسة، تحكي حدثا وقع في الزمن البدئي، زمن البدايات الخارق –بعبارة أخرى- تحكي لنا الأسطورة كيف جاءت واقعة ما إلى الوجود بفضل منجزات

اجترحتها الكائنات العليا، سواء كانت واقعة كلية كالكون أو مجرّد واقعة جزئية، إنها سر لحكاية الخلق. ورغم كل الاختلافات حول تعريفات الأسطورة إلا أنها ذات طابع اعتقادي وهي السمة البارزة والمشتركة عند تلك التعريفات.

2. نصوص خلق الإنسان في الميثولوجيا العالمية

كيف ظهر الإنسان وكيف بدأ الخلق؟ أسئلة كان يطرحها الإنسان منذ الأزمنة الغابرة في سائر الحضارات والمجتمعات الإنسانية، ويُحاول إيجاد إجابات معقولة، وهو ما أدى إلى ظهور الأساطير أغلبها تفسيرية أو تعليلية تحاول الإجابة عن تلك الأسئلة، وقبل أن نتطرّق إلى نصوص الخلق في مجتمعات إنسانية مختلفة، لا بأس أن نقف عند مصطلح الأسطورة والعلم الذي يتخصّص بدراستها وهو الميثولوجيا، وهو علم دراسة الأساطير والخرافات والطّقوس بما تحويه من اعتقادات وتصوّرات للعالم لدى شعوب العالم بأسره، وتعود هذه الكلمة في أصولها الأولى إلى اليونان القديمة، وهي مقسّمة لإلى قسمين: ميث وتعني الأسطورة، ولوجيا وتعني العلم والمعرفة ليشير المصطلح بذلك إلى العلم الذي يدرس الأساطير.

1.2. من أساطير الخلق بالمشرق:

ما أوردته الباحثة نبيلة إبراهيم" في كتابها "أشكال التعبير في الأدب الشعبي"، والتي تقول: "وفي بداية الأمر كانت الأرض الأمّ متزوجة من السّماء، وكانت السّماء والأرض ملتصقتين ولهذا فقد كان الظّلام يسود الكون، ثم أنجبت الأرض الأبناء من خلال هذا الزّواج، وهم: الشّمس والقمر والنّجوم، وكان الأبناء يختنقون إذ كانوا محشورين بينهما. عندئذ فكر الأبناء في وسيلة يفصلون بها الأرض عن السَّماء حتّى يجدوا مجالاً للتنفس فأطلق بعضهم السّهام فانفصلت السّماء عن الأرض، على أن الأبناء آثروا بعد ذلك أن يعيشوا في السّماء حتَّى يكونوا في مواجهة الأرض الأمّ، كما تتمكَّن الأم من النَّظر إليهم على الدّوام، وبهذا ساد الضياء الكون بعد أن كان يسوده الظلام". ومن خلال هذه الأسطورة يتضح لنا أنّ الإنسان القديم كان يشبّه قران الرّجل بالمرأة في العالم السفلي/الأرضي وبين القران الذي عقدته السَّماء والأرض، فذلك الإنسان لم يكن على وعي تام يسمح له أن يميّز بين ما هو واقع بما هو مثال وبالتالي بين الشيء والرَّمز.

أمّا في مصر القديمة فقد خُلق الكون والإنسان من الظّلام والفوضى العارمة، ولم هناك سوى الماء الداكن وسط فراغ هائل، وإنّه يوجد في هذا الفراغ "حكا" إله السحر، وارتفع وسط الماء تل بدائي يدعى

"بن بن" والذي يقف عليه الإله الأعظم "أتوم". نظر "أتوم" إلى العدم وتعرّف على وحدته وقرّر التزاوج مع ظلّه من خلال السّحر لينجب طفلين : "شو" إله الهواء، و"تفنوت" إله الرطوبة، فأعطى الأوّل للعالم مبادئ الحياة وقدّم الثاني مبادئ النظام. ومع مرور الوقت قرر الابنان المغادرة، وشرعا في تأسيس العالم وجلس والديهما حزينا ينتظر عودة ابنيه وأذرف دموعا كثيرة، بسبب الكرب الذي أصابه، ولكن سرعان ما تحوّلت تلك الدموع الحزينة إلى دموع الفرح بعد عودتهما، وتسقط على أرض "بن بن" الخصبة وتنجب الرجال والنساء، وتزاوج هؤلاء وأنجبا أولاد كثر، وهكذا ظهر الإنسان على سطح الأرض.

كما أورد "ألكسندر هيدل" (Alexender Haidel) قصّة الخليفة عند البابليين بعنوان "سفر التكوين البابلي/قصَّة الخليقة/ملحمة "الإينيوماإليتش" أو "حينما في الأعالي" أين قدّم نصوصا سردية بابلية تتحدث عن حكمة القوم وعن أربابهم لاسيما "مردوك" الذي كان يتصدّر مجمع الآلهة البابلية بوصفه إلهًا قوميًا، وملخّص هذه الأسطورة كالآتي:

أنّه في زمن الماضي لم يكن يوجد هناك شيء سوى الأبوان الإلهان: "أبسو" و"تئامت" وابنهما "ممّو"، فكان الأوّل بحر المياه الحلوة، وكانت الثانية بحر المياه المالحة، بينما كان الثالث يمثل السديم المرتفع من التقاء تلك المياه". وأنجب الأبوين: "لخمو"، و"لخامو"، وهكذّا دواليك أنجب الأبناء أبناءً وأولادا كثيرين حتّى امتلأ العرش،...

2.2. أصل الإنسان في القرآن:

تختلف الآيات القرآنية من جهات حول خلق الإنسان فيعرض بعضها لخلق أول إنسان، وبمعرفة ذلك سوف يتضح مبدأ جميع أفراد الإنسان الآخرين من الناحية التاريخية فإذا قلنا أن آدم خلق من طين صح عندها القول بأن جميع الناس خلقوا من التراب.

ويعرض البعض الآخر إلى جميع أفراد الإنسان بصورة مستقلة، ومن الواضح عدم نفي هذا الظهور للظهور الأول بمعنى أن يقال: إن كل إنسان قد خلق من نطفة وهي مخلوقة من مواد غذائية والمواد إما لحوم أو نباتات وجميعها يعود إلى الأرض فيكون مبدأ خلق الإنسان باعتبار كل فرد من أفراده هو التراب. ثم إن هذا الاختلاف ليس تناقضاً لأن كل فئة من الآيات تنظر إلى جهة لا تلحظها الآيات الأخرى. يقول تعالى: ﴿ولَقَد خَلَقنَا الإنسانَ من سُلالة من طينٍ، ثمّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قرارٍ مكينٍ، ثمَّ خَلَقْنَا النُطفةَ عَلَقَةً

فَخلقنَا العَلَقَةَ مَضغَةً فَخلقنَا مَضغَةَ عِظاما، فَكَسَونا العظامَ لَحما ثمّ أنشأناهُ خَلْقا آخرَ، فَتَبَارَكَ اللهُ أحسنُ الخَالقينَ، ثمّ إنّكُم بعدَ ذلكَ لَميّتونَ﴾ [المؤمنون، الآيات: 12-15]

من أي شيء خلق الإنسان:

الملاحظ لكيفية تناول الكتاب الشريف لمبدأ وجود الإنسان قد يبدو له لأول وهلة وجود اختلاف بين آياته إذ يراه يقول في آية: "وهو الذي خلق من الماء بشراً"، وقال في آية أخر ﴿فَلَينظُرِ الإنسانُ ممّ خُلقَ، خُلِقَ من ماءٍ دافقٍ يخرجُ من بين الصلب والترائب﴾ [الطارق الآيات: 5-7] إلا أنّه بعد التعمق في آيات الكتاب لن نرى اختلافا لأن النطفة والماء، والماء الدافق كلها ماء فيمكن الجمع بينها.

وقد أطلقت كل منها لجهة خاصة وعليه يتّضح أنّ الماء باصطلاح القرآن الكريم ليس منحصراً في خصوص السائل المركب من هيدروجين وأكسجين، بل هو معنى واسع يشمل حتى النطفة. لكن الذي يوجب توهم الاختلاف في أصل مبدأ الإنسان وخلقه ما ورد من التعبيرات المتنوعة وهي: التراب-الطين-الحمأ المسنون- الصلصال وأمثالها. وهذا أيضاً يمكن علاجه بالجمع بين هذه الآيات المتعرضة لذلك فالتراب إذا أضيف إليه الماء أصبح طيناً، وإذا جف ماؤه صار صلصالاً.

ويعبر عن الطين في سواحل البحار والأنهار بالحمأ وإذا كانت فيه لزوجة عبر عنه بالطين اللازب فكل هذه ناشئة من التراب ، فكأن كل آية من الآيات تعرض لمرحلة من مراحل خلق الإنسان.

نعم يبقى الاختلاف بين الآيات المؤكدة على الماء والآيات التي تشير إلى التراب فكيف يجمع بينها؟

ويجاب بأنّ الاختلاف المذكور يتصور في حالة حصر أصل الخلق في خصوص الماء أو التراب، أما لو كان المقام عبارة عن ذكر بعض العناصر المكونة لا جميعها فعندها يكون الجمع ممكناً حيث أن الآيات الناصة على أحدهما دون الآخر تكون متعرضة لبيان بعض العناصر المكوّنة.

3.2. النّص الأنتروبوغوني القبائلي: (شمال الجزائر)

يقول النّص الأسطوري: إنّه في البدء، لم يكن البشر يعيشون على سطح الأرض، ولم يكن في الوجود إلا امرأة ورجل وكانا يعيشان تحت الأرض، ويجهلان أنّهما من جنسين مختلفين، وفي يوم من الأيّام وبينما هما قرب عين الماء ليشربا، قال الرّجل: "دعيني أشرب أوّلا!" وقالت المرأة: "لا، أنا التي ستشرب، أنا الأولى". فنشب صراع بينهما حتى أسقطها الرّجل على الأرض فانشق ثوبها وتمزّق وظهرت عورتها. حينئذٍ اكتشف

الرّجل اختلاف أعضائهما الجنسية، إذ إن للمرأة رحما بينما يمتلك هو عضوا ذكريا فتساءل عن سرّ تلك الفجوة التي تظهر داخل رحم المرأة، وأدخل أصابعه وأحسّ بأن الرحم يتّسع أكثر فأكثر حتّى انشدّ إليها وضاجعها ولم يفارقا فراشهما إلا في اليوم الثامن.

وبعد انقضاء تسعة أشهر أنجبت المرأة أربع فتيات، كما أنجبت أربعة فتيان بعد مرور تسعة أشهر أخرى. وتوالت الولادات حتى بلغ عدد الأبناء خمسين فتى وخمسين فتاة. ولم يدرك الأبوان ما سيفعلانه بكل هؤلاء الأبناء، قررا أن يبعثا بهم بعيدا، فمضت الفتيات نحو الشمال بينما توجّه الذّكور نحو الشرق. وبعد سنين من سير الفتيات تحت الأرض أبصرن ثغرة في الأرض ترسل نورا وهاجا فتسربن فيها ورأين من خلالها السّماء، وصحن قائلات: "لماذا علينا البقاء تحت سطح الأرض؟ لنصعد إلى الأعلى ونتأمل في السّماء"، فصعدن عبر الفجوة إلى سطح الأرض. ومن جهتهم وبعد مرور سنوات من السّير، عثر الفتية على منفذ مماثل سلكوه وبلغوا سطح الأرض، ولمّا شاهدوا السّماء اندهشوا وقالوا: "لماذا نبقى تحت الأرض بينما هناك السّماء في الأعلى؟" فخرجوا على سطح البسيطة. وواصل كلّ من الفتية والفتيات طريقهم دون أن يعلم أحدهم بالآخر.

ولمّا كانت النباتات والأحجار تتكلّم في الزمن البدئي، أخذت الفتيات يسألن الأشجار قائلات: "من هذا الذي خلقكم؟" وتجيب الأشجار: "إنّ الأرض هي التي خلقتنا"، وسألن الأرض: "من ذا الذي خلقك"، تجيب الأرض وتقول: "أنا مصنوعة مثلكن"، ولمّا رأين القمر والنجوم ناديهنا قائلات: "من خلقكن أيتها الكائنات التي فوق كلّ شيء؟ أما أنت التي تنيرين الكون وما عليه؟ وأنت أيّتها النّجوم من جعلك صغيرة الحجم وكبيرة؟" وهكذا واصلت الفتيات بطرح الأسئلة للكائنات من حولهن عن خالقها وكيفية الخلق.

أمّا الفتية فقد قادتهم خطاهم إلى موضع قريب من مكان تواجد الفتيات اللائي كنّ يصدرن صيحات تتعالى هنا وهناك، وقال الفتية مخاطبون أنفسهم: "ها هي ذي مخلوقات مثلنا، هيا لنرى ما هو شكلها، هيا نلحق بها"، فاتجهوا صوب مصدر الصياح لاستطلاع الأمر ليصلوا إلى ضفّة نهر يفصلهم عنهن في الضفّة الأخرى، واندهشوا لرؤية النهر وأخذوا يسألونه عن هويته، وكان بإمكانهم التواصل مع الفتيات، اللائي بادرن مخاطبة الفتية قائلات: "من أنتم؟ لماذا تصيحون هكذا؟ هل أنتم أيضا بشر مثلنا؟" أجاب الفتية قائلين: "نحن أيضا بشر مثلكن، خرجنا من باطن الأرض أين كنا نعيش، ولكن لماذا تصحن هكذا؟" فأجابت الفتيات: "إنّنا نسأل القمر والنجوم عن خالقها، وهل هي التي خلقت الكون وما عليه".

أمّا الفتية فأخذوا يسألون النهر وخاطبوه قائلين: "أنت لست مصنوعا مثلنا، ولا يمكننا المجازفة والمشي فوقك كما نمشي على الأرض، فمن تكون؟ وكيف يمكننا العبور من أجل بلوغ الضّفة الأخرى؟" ويجيب النهر قائلا: "أنا مصنوع من الماء، وأصلح للشرب والغسيل والسباحة، وإن أردتم العبور فيجب الاجتياز عبر المكان الضحل"، ليعبر الفتية ويلتحقوا بالفتيات اللائي لم يسمحن لهم بالاقتراب منهن ووضعن حدودا فاصلة تفصل بينهما، وهكذا ساروا قريبا من بعضهم البعض دون أن يلتقوا أبدا.

وذات يوم قدم الفتية إلى المنبع وكانت الفتية بالقرب منهم، وخاطبوا أنفسهم قائلين: "أمَا كان النهر قد قال لنا أنه يمكن الاستحمام بداخله" ليرتموا في الماء بعدما خلعوا ثيابهم، وبينما جلست الفتيات يشاهدن الفتية وهم يستحمون تكلّمت إحداهن قائلة: "تعالي معي أيّتها الفتيات سنكتشف ما يقوم به الفتية"، فعارضت الفتيات اقتراح أختهن إلا اثنتان منهن اللّتان قررتا المجيء معها، وأخذت الفتيات الثلاث بالانسلال عبر الغابة لاكتشاف سرّ الفتية، ولمّا خافت الفتاتان مواصلة الطريق قرّرت الفتاة الجريئة أن تفعل ذلك وبلغت مشارف النهر وبقيت تراقبهم خلسة وتستطلع أمرهم عن كثب واكتشفت اختلاف أعضائهما الجنسية.

ولمّا عادت الفتاة الجريئة إلى رفيقاتها، سألنها عمّا شاهدته قائلات: "ماذا رأيت؟ هيا أجيبي بسرعة!" وقالت لهن: "هيّوا معي، لنستحم معا في النهر!" لتقوم الفتيات بخلع ثيابهن والدخول في المنبع. بدأت تقصّ عليهنّ الاختلافات الجسمانية الموجودة بينهنّ وبين هؤلاء البشر، وقالت لهن: "هؤلاء البشر ليس لديهم ثديان مثل الأثداء التي نمتلكها، وليس لديهم رحمٌ مثلنا بل لديهم شيء آخر، كما أن شعرهم ليس طويلا مثل شعرنا بل قصيرٌ، وحينما نشاهدهم وهم عراة تنتابُنا رغبة جسمانية عارمة، فأجبنها قائلات: "لا بدّ وأنّك تكذبين"، فردّت: "إن أردتن، اذهبن وتأكدن بأنفسكن، وستفقدن الصواب مثلما فعلت أنا"، فقررت الفتيات أن يُعاينَّ الأمر عن كثب.

وذات يوم من الأيّام قرّر الفتية الكف عن النوم في العراء وإنشاء البيوت، فقام بعضهم بحفر سراديب اتخذوها تحت الأرض للمبيت بداخلها. أمّا بقية الفتية فتقدّموا إلى رفاقهم واستفسروا عمّا يقومون به قائلين: "ماذا تفعلون؟ أنتم تحفرون الأرض لبناء المنازل؟ ألا يوجد طريقة أسهل من ذلك تغنيكم الشقاء؟ إنه يوجد الكثير من الأحجار ويمكنكم جمعها واستعمالها للبناء!" وقام الفتية وبنوا جدرانا عبر رصف الحجارة التي جمعوها وجعلوا في الوسط بابا يدخلون عبره ويخرجون، ولمّا أراد أحدهم قطع شجرة صاحت عليه قائلة: "ويحك يا هذا! أتريد قطعي! أنا أكبر منك سنّا، ومن أوحى إليك بأن تقطعني؟" ويجيبها

الفتى قائلا: "أنا لست أكبر منك سنّا، وليس لديّ أدنى مطمع. أريد فقط أن أقطع خمسين شجرة منكن، وأبني سقوفا تقينا من المطر". فأجابته الشجرة: "لا بأس أنا موافقة". قام الفتى بقطع جذوع الأشجار ثم دعمها بعمودين أثبتهما وسط البيت، ولما شاهده الآخرون عمدوا إلى القيام بالأمر ذاته. وكان من بين الفتية فتى متوحّش، وكانت من بين الفتيات أيضا فتاة متوحّشة، ولم يرغب الفتى أن يعيش في البيت رفقة رفاقه، فقرّر أن يمكث في العراء، ولم يبنِ له بيتا يسكن فيه مثلما كان الأمر مع إخوانه، وأخذ يحوم حول بيوتهم، ويسعى للإمساك بأحدهم والتهامه، فقد بلغ من الوحشية ما يجعله يفكر في القضاء على الآخرين وأكلهم.

وعلى بعد مسافة منهم، كانت الفتيات يسترحن ويرصدن ويستطلعن في أمر الذّكور الذين كانوا يبنون بيوتا لهم، وتساءلن فيما بينهن قائلات: "ولكن ماذا يفعل هؤلاء البشر؟ وماذا يفعلون بتلك الأحجار والأشجار؟" واقترحت الفتاة الجريئة الذهاب مجدّدا حيث الفتية للاستفسار عن أمرهم. فاندست خلسة عبر أشجار الغابة صوب بيوتهم، ودخلت إلى أحد المنازل الفارغة واندهشت لما رأته وأُعجبت به، وحينها مرّ المتوحش من الفتاة واشتم رائحتها، هجم عليها وصاحت مرعوبة وفرّت عبر أشواك الغابة صوب رفيقاتها، بينما قام الفتية الذين كانوا قد سمعوا صراخها بملاحقتها عبر ممرّات الغابة لتقوم الفتيات لنجدتها، فوقع صدام بينهن وبين الفتية مثنى مثنى، كما التقى المتوحشان واصطدما بعضهما ببعض.

كلّ هذه الأحداث جرت وسط الأدغال، وكان كل من الفتية والفتيات لا يرى بعضهم بعضا. ولمّا كانت الفتيات أقوى من الفتية، فقد ألقين بهم على الأرض، ونطقت إحداهن قائلة: "الآن سأتأكّد من صحّة ما قالته الفتاة الجريئة حول الاختلافات الجسمانية الموجودة بيننا". وأمسكت كل واحدة منهن بغريمها وبدأت تلمس ذكره الذي أخذ ينمو شيئا فشيئا، لتتحسّس به ويغمرها شعور باللّذة، وقمن بتجريد الفتية من ملابسهم وهم مستلقون على الأرض وينتابهم هدوء تام، ليدخلوا أعضاءهم الذكورية في فروج الفتيات، ليمارسوا الجنس ومن هنا أصبح الفتى أكثر اهتياجا من الفتاة. واصطحب كل واحد منهم فتاته صوب بيته ليتزوّج منها ويسكن إليها. ولمّا حلوا في بيوتهم قال الفتية: "من غير اللائق أن تعتلي المرأة الرّجل، من الآن فصاعدا نحن الرّجال من سيعتلي النّساء خلال ممارسة الجنس، لنكون أسيادا عليهن". وابتداءً من ذلك اليوم صار الفتيان يمارسون الجنس على الفتيات بهذه الطّريقة، ولا تزال نفسها التي يقوم بها اليوم الشاب القبائلي المتزوّج.

أصبح الفتيان أكثر تهيّجا من الفتيات وأكثر تهوّرا، ويعيش الجميع في سعادة وأمان واستقرار، وأصبح المتوحشان بدون مأوى وأخذا يحومان حول المنازل محاولين الإمساك بأحد البشر لأكله، لذلك أصبح بقية الفتية والفتيات يطاردونهما في كلّ مرّة يقتربان من منازلهم. وتساءل المتوحشّان: "ألسنا مختلفين عن بقية البشر؟ إنّنا غير مرغوب فيهما! لنترك هذا المكان! ونعيش في الغابة".

وانطلقا في طريقهما صوب الأدغال، وبقيا هناك إلى الأبد لا يخرجان منها إلاّ لمهاجمة الأطفال واختطافهم لالتهامهم، فصارت الفتاة المتوحّشة أوّل غولة (تسرْيَلْ: آكلة لحوم البشر) وصار الرّجل المتوحّش أوّل أسدٍ (إيزم)، وظلا يعيشان على الاقتيات من اللّحم البشري. أمّا بقية الفتية والفتيات فكانوا سعداء جدا لتخلّصهم من المخلوقين المتوحشين المفترسين للبشر، وعاشوا في سعادة وأمن ورغد يقتاتون من النباتات والثمار التي يقطفونها.

4.2. أسطورة أصل الإنسان عند الفايكينغ:

حسب أساطير الفايكنغ... فإنّ أصل الإنسان ليس سوى جدع شجرة وهبته الآلهة الحياة والحكمة ووسائل التواصل ووهبته العالم الي صنعته "ميدكارد" للعيش فيه والاستقرار به.

تروي لنا هذه الأسطورة قصة خلق الآلهة للإنسان بعد أن خلقت الأرض، فبعد أن صنعت الآلهة "ميدكارد"، عالم الأرض، أحست بعظمة ما قامت به، وأرادت الإحتفاء بهذا الإنجاز العظيم، وقررت أنها تستحق الراحة والجزاء على ما فعلته، ولذلك بنت لنفسها قصرا كبيرا وضخما ودعت بقية الآلهة إليه من أجل الاحتفال، كما بنت "بايفروسف" وهو جسر له شكل قوس قزح يمكنها من النزول إلى الأرض والعودة منها، حيث كانت الآلهة تذهب للتنزه باستمرار على الأرض.

استمرت هذه الاحتفالات لمدة طويلة، وفي أحد الأيام، وبعد إحدى الحفلات أراد ثلاثة آلهة أن ينزلوا إلى الأرض ليأخذوا نزهة بها، وفي طريقهم وجدوا جدعي شجرة ميتين فقرروا ان يبعثوا فيهما روح الحياة، فتكفل كل واحد منهم بجزء، فتقدم "أودين" ، كبير الآلهة وإله الحرب والحكمة، وبث فيهما روح الحياة، أما "نير" فمنحهم الحكمة والفهم، ثم أهداهم "فيلي" القدرة على السمع والنطق والرؤية وصبغهما بألوان الحياة، وبذلك تحرك الجدعان وبدآ بالتنفس لمدة طويلة تحولوا بعدها إلى كائنين جديدين، أطلقت عليهم الآلهة اسمي "أسك" و"أمبلا"، ووهبتهما "ميدغارد" ليسكنوا فيها، وبذلك أصبحا أول زوج في السلالة

البشرية، استقر" أسك" و"أمبلا" في الأرض وأنجبا العديد من الأنباء، الذين بدورهم أنجبوا العديد من الأبناء، وهكذا تكاثر الجنس البشري وعمرت الأرض.

المصادروالمراجع:

- القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.
- إسماعيل بن حماد الجوهري، معجم الصحاح/تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، الجزء 1، دار العلم للملايين، بيروت، دت.
- ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة محقّقة، دار المعارف، القاهرة، 2007.
- السيّد محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس، ج12، تحقيق: مصطفى حجازي، مراجعة: عبد الستّار أحمد فرج ، مطبعة حكومة الكويت/المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1973..
- عبد الحميد يونس، الفولكلور والميثولوجيا، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد: الأوّل، الكويت، 1972.
- فراس السواح، الأسطورة والمعنى: دراسة في الميثولوجيا والديانات المشرقية، دار علاء الدين، دمشق، 1997.
- فراس السواح، مغامرات العقل الأولى، دار الكلمة للنشر، ط1 ، بيروت، 1980.
- ماكس شابيرو ورودا هندريكس، معجم الأساطير، تر: حنا عبود، دار علاء الدّين، دمشق، ط3، 2008.
- مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، تر: نهاد خياطة، دار كنعان، دمشق، 1991.

- Le dictionnaire de Larousse/Dictionnaire de la langue française/lexis, Librairie Larousse, Paris, 1989.
- Le dictionnaire encyclopédique illustré de la langue française, Ed : Carrefour/ SEU, Paris, 1995.
- Gilbert Durand, Figures mythiques et visages de l’œuvre, Berg international, Paris, 1979.

- ألكسندر هايدل، سفر التكوين البابلي/قصّة الخليقة (ملحمة حينما في الأعالي)، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الجمل، كولونيا/ألمانيا، بغداد، ط 1، 2007
- ليو فروبينيوس، أساطير قبائلية في خلق الكون وتصوّر العالم، ترجمة: نبيل حويلي، دار الأمل، تيزي وزو، ط1، 2020.
- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب، القاهرة، دت
- نيكولا جورنه، بين الكوني والخصوصي (البحث عن البدايات-طبيعة الثقافة-تشييد الهويات)، ترجمة: إياس حسن، دار الفرقد للطّباعة والنّشر والتوزيع، دمشق، ط2، 2014

المحاضرة رقم 3

التطوّرية الثقافية الاجتماعية للإنسان:

تطوّرت الأنتروبولوجيا بتطوّر المجتمعات ومرور الزمن، وظهرت العديد من الاتجاهات بقيادة مجموعة من الباحثين الذين تناولوا موضوعات الأنتروبولوجيا، ولعلّ الدعائم التي جاء بها "تشارلز داروين" كانت المنطلق الأول لأغلب الباحثين الأنتروبولوجيين، إذ كان ملهمهم في تناول الثقافة داخل الجماعة الإنسانية.

الاتّجاه التطوّري:

بدأت بوادر هذا الاتجاه في الظهور مع "داروين"، ولقد احتضن نشأة الأنتروبولوجيا كعلم خلال القرن 19 للميلاد، حينما حاول فهم كيفية نشأة المجتمعات الإنسانية، ويرى الباحثون التطوّريون أنّ تاريخ الإنسان وتاريخ الثقافة يشكّلان خطّا متصاعدا، إذ ينتقلان من أشكال بسيطة إلى أشكال معقّدة بعد مرور الأزمنة، وهذه السّمة التطوّرية تخصّ جميع المجتمعات الإنسانية دون استثناء، وما يختلف بينها هو درجة التطوّر التي تختلف من جماعة إلى أخرى، وهذا يعود إلى مجموعة من العوامل، سنقوم برصدها عند الحديث عن الاتجاه الثقافي التطوّري أو ما يُعرف بالنظرية التطوّرية الجديدة.

وقسّم العلماء مراحل التطوّر البشري إلى مجموعة من المراحل، وعلى رأسهم التطوّري الأمريكي "لويس مرغان" (Louis Morgan) الذي درس سكان الشمال الشرقي الأمريكي الأصليين ويرى بأنّ البشرية قد تطوّرت عبر ثلاث مراحل أساسية وهي على هذا النحو:

أ/ مرحلة التوحّش: ويسمّيها أيضا المرحلة الهمجية، وهي مرحلة ظهور الإنسان، ويقسّمها إلى مرحلة التوحّش الدنيا ثمّ بعد التطوّر أصبحت تسمى مرحلة التوحّش الوسطى، وأخيرا مرحلة التوحّش العليا. وحسب "مورغان" فقد حدث هناك تطوّر وارتقاء ثقافي خلال الانتقال من مرحلة إلى أخرى، خاصة ما يتعلّق بتقنيات العيش والصيد والقنص والنّظم الاجتماعية وسلوك الأفراد.

ب/ المرحلة البربرية: وتنقسم بدورها إلى ثلاث مراحل الدنيا فالوسطى وأخيرا العليا، وربط "مورغان" كلّ مرحلة من تلك المراحل بنمط معيّن طبقا لمراحل التطوّر الثقافي، أي إنّ كل مرحلة تميّزها علاقات ثقافية تتمظهر في شكل من أشكال النظم الاجتماعية.

ج/ المرحلة المدنية 'الحضارة): وهي المرحلة الأكثر تطوّرا، وفيها تمّ اختراع الكتابة والخطّ والحروف التي تعتمد عليها كل اللّغات البشرية، وهي لا تزال تمتدّ وتتواصل إلى يومنا هذا –حسب رأي "مورغان طبعا- وما يشهده العالم أيضا من تطوّرات تقنية فاقت التصوّرات.

وحاول "مورغان" من خلال أعماله دراسة أنظمة القرابة وأشكال الأسرة، واكتشف أنّها تختلف اختلافا كبيرا من جماعة إلى أخرى، وهو يعاين مثلا قبائل الإيروكيز وجزر هواي بالمحيط الهادي. استخدم مصطلحات يمكن وصفها بغير المناسبة إذ لم نقل أنّها مستفزّة نوعا ما في حقّ تلك الشعوب، درس مستويات الزواج، ويرى أنّه حالة من حالات الاختلاط الجنسي بين أعضاء القطيع البدائي، إذ كان مجتمع تلك الشعوب في بدايته يعتمد على الأخوة والأخوات والآباء والأولاد. ولكن بمرور الزمن شهدت الجماعة مرحلة تطوّر تعتمد على تحريم الزواج بين الفروع والأصول. وكان التطوّر الثاني هو حظر الزواج بين الأخوة والأخوات من نسل الأم، ثمّ بين الأخوة والأخوات من قرابة الحواشي، ويكون الرّجال في هذا الشكل من الأسرة أزواجا مشتركين لزمرة من نساء لسن بأخوات لهم، وتصبح الأخوات بالمقابل الزوجات المشتركات لرجال ليسوا بإخوة لهن.

وكانت العشيرة في شكلها الأوّل لدى هذه الجماعات بل وفي سائر المجتمعات الإنسانية تقوم على نسب الأم في إطار ما يطلق عليه علماء الأنتروبولوجيا بالنظام الأمومي أو الأمرسي (le système matriarcat) وبعد مرور الزمن حلّت محلّ العشيرة التي تقوم على نسب الأم تلك التي تقوم على نسب الأب، والتي تطوّرت بدورها بعد ظهور القطاع الفلاحي بشكل ملفت للانتباه كتربية المواشي والزراعة الأمر الذي أدّى إلى ولادة الأسرة الأبوية وبروز النظام الأبوي أو الأبرسي (le système patriarcat) وأدى تطوّر الأسرة الأبوية بدورها إلى ولادة الأسرة الزوجية الحديثة.

كما افترض "مورغان" عددا من المراحل التطوّرية الاجتماعية، وربط كلّ مرحلة من تلك المراحل بنمط معيّن طبقا لمراحل التطوّر الثقافي، كما يرى أنّ جميع المجتمعات الإنسانية تخضع في تطوّرها لقانون واحد طالما أنّ تاريخ الجنس البشري واحد، غير أنّ الثقافة الإنسانية انتهجت في تطوّرها مسارا أحاديا أي أنّها تنتقل عبر التاريخ وفق سلسلة متتابعة الحلقات، بمعنى وجود مراحل محدّدة وحتمية لا بدّ أن تمرّ بها كلّ ثقافة من الحالات الدنيا إلى العليا.

وأسهم عالم الثقافة البريطاني "إدوارد تايلور" في دراسة الثقافة، إذ يرى بأنّها عنصر مساعد لفهم التاريخ الإنساني طالما أنّها ظاهرة تاريخية تميّز الإنسان دون غيره من الكائنات، ويكتسبها بالتعلّم من

المحيط الذي يعيش فيه، وبهذا المعنى تكون الثقافة عنده حصيلة ما يكتسبه الفرد في المجتمع، وقدّم "تايلور" دراستين في مجال التطوّر الثقافي: "أبحاث في التاريخ المبكّر للبشرية وتطوّر المدنية" عام 1869 والمجتمع البدائي عام 1871، وكانا من وجهة نظر التطورّرية.

ودرس "تايلور" حياة الشعوب كطرق إشعال النار عند البدائيين، وطريقة الطهي بالحجارة الساخنة، وكذا نظام الزّواج الاغترابي المحلي ونظام الزواج مع أنساب الأم كما تحدّث بأسبقية النظام الأمومي على حساب النظام الأبوي. ودرس أيضا المعتقدات وتفسير الدّيانات، وخلص إلى أنّ جميع العقائد الدينية ظهرت نتيجة للتفسير الخاطئ لبعض الظواهر التي يتعرّض لها الإنسان مثل الأحلام والسلوك والأمراض والنوم والموت وغيرها ... ومن ثمّ نشأت لديه اعتقادات بأنّ الروح تفارق الجسد أثناء النوم مبتعدة إلى عوالم أخرى ثمّ تعود مرتدة إليه عند اليقظة. ومثل هذه النصوص وقعت بين أيدينا من خلال تصفحنا لميثولوجيا منطقة القبائل بالجزائر، وأيضا أثناء عمل ميداني قمنا به على إثر انجازنا لأطروحة دكتوراه بعنوان: منظومة الفكر الأسطوري بمنطقة القبائل –مقاربة أناسية-، وهنا يمكن أن نستدلّ بنصّ أسطورة ظهور الموت على سطح الأرض جمعه "ليو فروبينيوس" من سفوح جرجرة عام 1913، ويبدو أنّه نصّ مكتمل إذ يفسّر سبب ظهور الموت على سطح الأرض في ميثولوجيا القبائل، تقول الأسطورة: يؤكّد الكثير من أهالي القبائل بأنّ الموت لم يكن موجودا من قبل. وحينما يملّ البشر من الحياة، فإنّهم يستلقون على أيّ مكان من الأرض لتخرج روحهم وتغادر أجسادهم. وأحيانا يبقى الرّوح منفصلا عن الجسد وقتا طويلا كافيا للاستراحة. وبعد فترة من الرّاحة يعود الرّوح مجدّدا إلى الجسم ليتولد فيه من جديد. وبمقتضى رأي أهالي القبائل حلّ الموت على الأرض بالكيفية التالية:

كان هنالك زوجان يمتلكان طفلا رضيعا، وكان الرّضيع ينام داخل مهده، وإذا بالإله يدخل إلى البيت ويخاطب الأم قائلا: "هل تريدين أن يموت ابنك للأبد، أم أنّك ترغبين بأن يرحل عنك لمدّة صغيرة فقط؟" واستمعت الزوجة إلى اقتراح الإله وأخذت تفكّر. ويحكي البعض أنّ الأم الأولى للعالم أي العجوز الشريرة قد دخلت إلى بيت الزّوجة وأشارت عليها قائلة: "إذا أنتِ أجبتِ الخالق بأنّ ابنك يجب أن يغادرك لبعض الوقت، فإنّ ذلك سيدوم فترة من الزّمن ولا يمكنك رؤيته إلا بعد انقضاء مدّة طويلة! وإذا ما أنتِ قلتِ بأنّه على البشر أن يموتوا إلى الأبد دون رجعة، فإنّك سترين ابنك عمّا قريب". ولكنّه ثمة من يؤكّد بأنّ المرأة وبطابعها الحذر قرّرت لوحدها دون مساعدة الأم الأولى للعالم.

بينما يوافق الجميع على الإجابة التي قدّمتها الزوجة للإله: "دع البشر يموتون، ولا تتركهم يعودون إلى سطح الأرض! ولكن بالمقابل دعني أرى ابني قريبا". وكان ردّ الإله على هذا النّحو: "رغبتك مستجابة! فودّعي طفلك لأنّه سيموت على الحين! وإذ أردت رؤيته فورا فأنت ملزمة بالموت بعده بقليل!" فذعرت المرأة، وتضرّعت إلى الإله مخاطبة إيّاه: "إنّي أتوسّل إليك يا مالك السماوات! ليس هذا ما كنت أقصده!"، وردّ الإله قائلا: "الكلام الأوّل هو الذي يفيد!"مات الطّفل ومباشرة وبعد مدّة قصيرة لحقت به أمّه وهي لا تزال صغيرة. ومنذ ذلك الحين صار البشر يموتون نهائيا ولا يعودون أبدا إلى سطح الأرض". يفيد هذا النص كيفية ظهور الموت على سطح الأرض في ميثولوجيا منطقة القبائل ودوّناه عن "ليو فروبينيوس" الباحث الألماني الذي اهتمّ بدراسة القارة الإفريقية.

ويرى "تايلور" أنّ أغلب العادات والطّقوس ارتبطت أيضا بعادة تقديم القرابين لأرواح الأجداد والاعتقاد بوجود الأرواح والآلهة والجنّ والشياطين وغيرها من الصور التي عدّها من الأصل الثقافي للمعتقدات الدّينية على اختلاف أنواعها والتي تطوّرت في المجتمع المتمدّن إلى فكرة الإله الأعظم أو الواحد. ويؤكّد بأنّ معنى الممارسات بالنسبة للبدائيين كما هو الأمر بالنسبة لكهنتهم، ليست ناتجا عن التأثير الذي تمارسه على الفكر الإنساني، والنظرية الأنتروبولوجية في رأيه هي القادرة على تقديم علم يتعلّق بالمحتوى الذهني للخرافة أو التفسير الأسطوري، وفهم الثقافات غير الغربية بشكل عام وهي بذلك ثمرة التمحور التاريخي والمعرفي. ونخلص في الأخير إلى أنّ مراحل التطوّر عند "تايلور" لم تكن حتمية ملزمة كما هو الحال عند "لويس مورغان" في عدّه لمراحل التطوّر البشري، كما أنّ آراءه لم تخلُ من القول بانتشار الثقافة، فيمكن بذلك تصنيف اتجاهه في خانتي التطوّرية والانتشارية على حدّ سواء.

المصادر والمراجع:

- ناصر إبراهيم، الأنتروبولوجيا الثقافية (علم الإنسان الثقافي)، دار صابر، بيروت، ط1، 2001.
- محاضرات عبر الخط قدّمها الأستاذ الدكتور: سفيان ميمون، قراءة في الاتجاهات والنظريات الأساسية في الأنتروبولوجيا، بتاريخ: 4 مايو 2012، https://www.politics-dz.com
- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ط1، 2004
- ليو فروبينيوس، أساطير قبائلية في خلق الكون وتصوّر العالم، ترجمة: نبيل حويلي، دار الأمل، تيزي وزو، 2021
- A. Hanoteaux et A. Leterneux, Les coutumes Kabyles, Chalamel, Paris, 1869
- Henri Genevois, Village de Kabylie, Tome : 1, Enag, Alger, 1995
- Philippe Descola, L’écologie des autres : l’anthropologie et la question de la nature, Ed : de la maison des sciences de l’homme, Paris, 2016.

المحاضرة رقم 4

علاقة علم الإنسان (الأنتروبولوجيا) بالعلوم الأخرى:

تؤدّي الأنتروبولوجيا دورا مركزيا في علوم الرّوح والثقافة والاجتماع، العلوم التي تطلب المساعدة توجيها وتأويلا، ويقتضي ذلك نظرة عامة حول نماذج علم الأناسة الأكثر أهمية مثل نماذج التطوّر والتأنّس والأناسة الاجتماعية والثقافية والتاريخية وغيرها ... كما يقتضي ذلك أيضا الكشف عن العلاقات التي تجمع الأنتروبولوجيا بالعلوم الأخرى، ونخصّ بالذّكر علاقة الأنتروبولوجيا بعلم النفس، وعلاقتها بعلم الأحياء (البيولوجيا) وعلاقتها بعلم الاجتماع، وبالجيولوجيا والجغرافيا وبعلم الفلسفة وغيرها من العلوم ...

والظاهر أنّ علم الإنسان أو الأنتروبولوجيا مستقلّ يدرس الإنسان من حيث نشأته وتطوّره وثقافته، ولكن هناك عدد كبير من العلماء ممّن يختلفون في تصنيف هذا العلم بين العلوم المختلفة، فبعضهم يصنّفه في خانة العلوم الاجتماعية كعلم النّفس والاجتماع والسياسة والتاريخ، مثلما هو الحال في الجامعة الجزائرية وفي الدّراسات الأكاديمية. ولكم ومع مرور الزمن فرضت هذه العلوم دخولها إلى ثقافة الشعوب وأصبحت جزءً منها ومكوّنا من مكوّناتها، وفرضت نفسها إلى جانب الأنتروبولوجيا فحدث امتزاج وتداخل بينها وبين العلوم الأخرى. وسنسعى في محاضرتنا هذه الوقوف عند هذا التعالق أو التداخل بين الأنتروبولوجيا والعلوم الأخرى:

1. علاقة الأنتروبولوجيا بعلم الأحياء، البيولوجيا : (Biologie)

يتناول علم الأحياء أو البيولوجيا دراسة الكائنات الحية من وحيد الخلية الأبسط تركيبا وحتّى كثير الخلايا والأكثر تعقيدا، ولذلك يُعرف بأنّه العلم الذي يدرس الإنسان كفرد قائم بذاته، من حيث بنية أعضائه وتطوّرها. وهو علم يدرس السجل البيولوجي للإنسان، بداية من المكانة الحيوانية للإنسان –إن جاز القول- ويحاول اقتناء أصل الإنسان وتطوّره من خلال الدراسات المقارنة، إذ ترتبط بنظرية التطوّر القائلة بأنّ أجسام أجناس الكائنات الحيّة وأنواعها ووظائفها وأعضائها تتغيّر باستمرار مع مرور الزمن ما دامت تتكاثر وتنتج أجيالا جديدة قد تكون أرقى وأسمى من سابقاتها، وهنا يمكن لنا أن نمثّل بالإنسان الذي ارتقى عبر مراحل زمنية وتاريخية متنوّعة. وتستند هذه النظرية إلى أنّ الإنسان بدأ كائنا بخلية

واحدة تكاثرت في إطار بيئته العامة إلى أن انتهى إلى ما هو عليه الآن من التطوّر العقلي والنفسي والاجتماعي.

ويلتقي علم الأنتروبولوجيا من الناحية النّظرية مع البيولوجيا، فكلاهما يدرس عملية إنتاج الحياة، وكلاهما مبني على نموذج نظري للتنوّع وكلٌّ في تخصّصه. ويعدّ "داروين" رائد علم الأحياء الذي استند إلى نظرية النشوء والارتقاء في حياة الإنسان، وقدّم له تفسيرا منهجيا معقولا يتلخّص في النقاط الآتية:

- إنّ تتابع الحياة بمعطياتها وظروفها ينتج كائنات مختلفة عن أصولها، وغالبا ما تكون أرقى من سابقاتها، وهذا يعني أنّ أنواع الكائنات لا تتكرّر هي ذاتها من خلال التكاثر، إنّما تتنوّع وتتغيّر باستمرار في أشكالها وأنواعها.
- هناك كائنات حيّة تتمتّع بخصائص تميّزها عن غيرها وتجعلها أكثر قدرة على البقاء من بعضها الآخر، وهذا راجع إلى قدرتها على التلاؤم مع الظّروف البيئية التي تحيط بها.
- هناك كائنات حيّة جديدة تمتلك عوامل التكاثر والاستمرار لفترة أطول من كائنات تتّسم بالضعف والخور، وبالتالي تتعرّض للانقراض بسرعة كبيرة.
- تمتلك بعض أنواع الكائنات الحيّة صفات مهلكة لدى خصائصها البيولوجية، وهو الأمر الذي يؤدّي إلى مصرعها بوتيرة سريعة، وربّما مباشرة خاصة حينما لا تكون هذه الخصائص تؤهّلها للتكيّف مع الظروف البيئية، وهو الأمر الذي يمكن له أن يؤثّر سلبا في نسل هذه الكائنات من حيث البنية والمقاومة والاعتراض.

وبناءً على هذه المبادئ التي أدلاها "داروين" في أصل الكائنات الحيّة وتطوّرها، وما آلت إليه مع وضع الإنسان الحالي، اكتشف العلماء قوانين الوراثة وما يتبعها من الجنّيات والخلايا التي تحمل صفات الإنسان، وتنقلها من الآباء إلى الأبناء والأحفاد من خلال التلقيح والتكاثر. ويُحظى تحليل التنوّع في كلّ من البيولوجيا والأنتروبولوجيا بدور حيوي: التنوّع الجيني في علم البيولوجيا والتنوّع الاجتماعي في علم الأنتروبولوجيا.

2. علاقة الأنتروبولوجيا بعلم الاجتماع: (sociologie)

يعرّف علم الاجتماع على أنّه العلم الذي يدرس الحياة الاجتماعية بجميع مظاهرها، ويتحرّى أسباب الحوادث الاجتماعية وقوانين تطوّرها. ظهر في أواخر القرن التاسع عشر، وهو من العلوم التي تسعى إلى

تفسير الظواهر الاجتماعية، سواء كانت هذه الظواهر في شكل جماعات بشرية أو نظم ومؤسّسات اجتماعية أو إنسانية، وهو بذلك العلم الذي يساعد في تكيّف الفرد والمجتمع للعيش معا ضمن مساعي مشتركة يسعون إلى تحقيقها من أجل التقدّم والاستمرارية. فعلم الاجتماع يركّز –إذن- على المجتمع والسلوك الاجتماعي وأنماط العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي، ويستخدم أساليب مختلفة من البحث التجريبي والتحليل النقدي لتطوير مجموعة من المعارف حول النظام الاجتماعي والقبول والتغيّر والتطوّر الاجتماعي.

وتكاد تكون العلاقة بين الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع متكاملة وتتداخل فيما بينهما أمور كثيرة واضحة المعالم، إذ هناك فرع من فروع الأنتروبولوجيا يُطلق عليه اسم: الأنتروبولوجيا الاجتماعية، فكلاهما يتناولان البناء الاجتماعي والوظائف الاجتماعية. كما نجد أنّ أغلب علماء الأنتروبولوجيا هم كذلك علماء الاجتماع، وأيضا التداخل في معظم الموضوعات المدروسة مثل الثقافة والنظم الاجتماعية والأسرة والقرابة إلا أنّ طريقة تناولها مختلفة، فالأنتروبولوجيا مثلا تتناول موضوع الثقافة من حيث نشأتها وفي سياقها التاريخي عكس علم الاجتماع الذي يتناولها كأداة تكيّف الإنسان مع المحيط الاجتماعي ووظيفة تهدف إلى إشباع الحاجات الإنسانية المختلفة. أمّا من حيث المنهج التاريخي وطريقة الدراسة وأدوات الملاحظة والمقاربة والمقارنة كلّها طرق منهجية مشتركة بين الحقلين. ولكيّ نقرب أكثر هذا الكلام نمثّل بما قدّمه عالم الاجتماع "ابن خلدون" الذي اعتمد بشكل أساسي على المنهج التاريخي والملاحظة في دراسة وتحليل أنساب العرب والبربر والعجم، وكذا نشأة العمران البشريّ واندثاره وتأسيس المملكة وبلوغها القمم ومن ثمّ زوالها واضمحلالها. بينما نجد "إميل دوركايم" قد استخدم الدراسة الطولية والملاحظة في تحليل النظام الاجتماعي والظاهرة الدّينية في المجتمعات البدائية التي درسها ونشير هنا إلى قبائل "أرنتا" بأستراليا. والفارق الظاهر بين العلمين، أنّ علم الاجتماع يركّز في دراساته على المشكلات الاجتماعية في المجتمع الواحد، كما يصبّ دراساته على المجتمعات الحديثة ويُهمل بالدّراسة المجتمعات البدائية أو المنقرضة. بينما نجد أنّ الأنتروبولوجيا تصبّ دراساتها على المجتمعات البدائية الأولية في عهودها الأولى والمجتمعات المتحضّرة والمعاصرة في الآونة الأخيرة خاصة بعد زوال الاستعمار واستقلال كافة الشعوب.

3. علاقة الأنتروبولوجيا بعلم النّفس:

يعرّف علم النّفس على أنّه دراسة علمية للعقل البشري والسّلوك والعقل والشخصية، وهو مجموعة الحقائق التي يتمّ الحصول عليها من وجهة النّظر النفسية، قد تكون ذات صفة عامة ومطلقة يمكن

تعميمها. وهو علم مهمّ جدا ولا يختصر على فرع واحد بل لديه عدّة فروع وأقسام، ويساعدنا هذا العلم في فهم أنماط الشخصيات المختلفة. وتهتمّ الدّراسات النفسية بالخصائص الجسمية الموروثة وكذا تحديد علاقاتها بعوامل سلوكية لدى الفرد، ولاسيما تلك العلاقة بين الصّفات الجسمية العامة وسمات الشخصية.

ويلتقي علم النفس مع علم الأنتروبولوجيا في دراسة السلوك لكنّهما يختلفان في طريقة البحث وسياقه، فالأنتروبولوجيا تهتمّ بدراسة السّلوك في سياقه التاريخي والكيفية التي أثّرت عليه عوامل مختلفة في الماضي، وما مدى استمرار مثل هذه التأثيرات في حاضر المجتمعات الإنسانية كتأثير الثقافة والمحيط أي البيئة على تشكيل أنماط السّلوك لدى الجماعات البشرية الغابرة. بينما يحاول علم النفس دراسة هذا السّلوك في سياقه الحاضر وبالتالي يعتمد على الملاحظة والمسح الاجتماعي والتجريب والمنهج الوصفي في تحليل السلوك الإنساني. ويؤكّد علماء النفس أنّ اهتماماتهم تقتصر على مشكلات سلوك الفرد بالدّرجة الأولى، بينما تميل الأنتروبولوجيا إلى وضع تصميمات جماعية على أسس الثقافة.

ويشترك علم الأنتروبولوجيا مع علم النفس في دراسة سلوك الإنسان، كون الأنتروبولوجيا هو العلم الذي يدرس الإنسان من حيث تطوّره وسلوكاته وأنماط حياته، والخلاف القائم بينهما هو أنّ علم النفس يركّز على سلوك الفرد أي الإنسان، أمّا الأنتروبولوجيا فتركّز على السلوك الإنساني بشكل عام كما تدرس السلوك الجماعي النابع من تراث الجماعة.

من الممكن جدا دراسة مظاهر التكيّف المورفولوجي لنوعنا البشري بالمصطلحات المألوفة في علم الأحياء، وفي الوقت نفسه لا بدّ من تطوير أساليب فنّية جديدة لوصف مظاهر التكيّف السلوكي النّفسي. واقتصر استعمال مفهوم الثقافة في البداية على السّمات الثقافية ونعني بها المظاهر السّلوكية التي يمتاز بها أعضاء مجتمع معيّن، ويبدو أنّ هذه السّمات عُولجت في البدء على أساس أنّها فطرية منعزلة بعضها عن البعض الآخر. وفي غالب الأحيان تقوم الدّراسة في علم النفس الاجتماعي على المحاكاة والتقليد والميول الاجتماعية، كالمشاركة الوجدانية والتعاون والغيرية وغريزة التجمّع إضافة إلى دراسة الاتجاهات وهو ما دفع إلى إنشاء دراسات خاصة بالأنتروبولوجيا السيكولوجية التي تهتمّ بشتى مظاهر سيكولوجية الإنسان حيث يعيش في طبقة أو جماعة، حيث أنّ الطبيعة الإنسانية من تأليف صميم علم النّفس العام، كما أنّها عامل أساسيّ في تكوين النظم الاجتماعية بصفة خاصة والإنسانية بصفة عامة.

ونتيجة ذلك أنّ المهمّة التي تواجه الباحث الأنتروبولوجي لا تختلف عن تلك التي تواجه علماء علم النفس في محاولتهما كشف خفايا الأمور وسبر غور العقل الباطن، ونخلص في الأخير إلى أنّ الأنتروبولوجيا تسعى غلى دراسة السلوك الخاص بالشخصية الفردية وإن كانت تتأثّر بالعلوم الاجتماعية.

4. علاقة الأنتروبولوجيا بعلم الجغرافيا والجيولوجيا:

تستفيد الدّراسات الأنتروبولوجية من المعطيات العلمية الجغرافية، وفي طليعتها النواحي الطّبيعية من تضاريس وجبال وسهول وبحار وغيرها ... إلى جانب الظّروف المناخية التي تختلف من منطقة إلى أخرى وأيضا اختلاف الفصول بين نواحي العالم، وذلك بحسب قربها أو بعدها من خطّ الاستواء أو من شواطئ البحار والمحيطات ومدى الارتفاع والانخفاض على مستوى سطح البحر. وهذه العوامل كلّها لا محال أنّها تؤثّر في حياة الإنسان بجوانبه المختلفة العضوية منها والاجتماعية والثقافية. وبسبب التباين المناخي عند المجتمعات البشرية نجد أنّ الأحوال المعيشية والبنى الاجتماعية تختلف اختلافا واضحا، إن كان ذلك من حيث المأكل أو الملبس أو من النّاحية السيكولوجية والنفسية، فمثلا سكان المناطق الجبلية المرتفعة يكونون في مأمن من الغزوات والحروب، بينما يتعرّض سكان السهول للغزوات والاجتياح طوال الوقت. كما نجد أنّ سكان السواحل أكثر انفتاحا في علاقاتهم مع العالم الخارجي وذلك للمقابلات اليومية التي يواجهونها مع الأجانب من تجار ورحالة ومسافرين وغيرهم ... بينما يكون سكان المناطق الداخلية شبه منغلقين على أنفسهم ويمتازون بعصبية قبلية مفرطة ويزداد الأمر سوءً وتعقيدا كلّما ازددنا غوصا نحو المناطق الداخلية.

وهو ما دفع بعلماء الأنتروبولوجيا إلى إهمال ذلك الجانب الذي يسمّى بالقدرات الفطرية للشعوب الإنسانية على حساب كتابة تاريخ الحضارة في ضوء عوامل البيئة والحظّ وتسلسل الأحداث المترابطة، وهناك الكثير من العلماء ممّن وضعوا نظرياتهم في العلاقة الموثوقة في أثر المناخ الناتج للطاقة الإنسانية. فمثلا يتميّز سكان المناطق الباردة بالنشاط الاندفاعي والحركة الدؤوبة، بينما يُصاب سكان المناطق الحارة بالخمول والكسل وهكذا ...

ومن جهة أخرى نجد أنّ علم الجيولوجيا يرتبط ارتباطا قويّا بعلم الأنتروبولوجيا، وهو العلم الذي يدرس الأرض، ويتضمّن دراسة المواد التي تشكّل الأرض وطبقاتها وأصل تكوينها، كما يهتمّ بدراسة تاريخ الأرض منذ نشأتها إلى يومنا هذا والمتمثّل في حوالي 4,54 مليار سنة، ويقوم أيضا على دراسة الصخور

والعوامل الباطنية للكرة الأرضية كالزلازل والبراكين والمستحثات المتمثّلة في الكائنات الحيّة التي سكنت الأرض منذ القديم.

هذا وتساعد الجيولوجيا التاريخية وهو فرع من فروع الجيولوجيا العامة في تحديد الفترات الزمنية التي عاش فيها كل نموذج من أنواع الجنس البشري، عن طريق دراسة البقايا العظيمة للأسلاف بين ثنايا القشرة الأرضية الرسوبية والمنضدة بعضها فوق بعض وفق خاصية النشوء والتقادم، وبذلك يمكن لنا معرفة الفترة الزمنية التي عاش فيها الإنسان بمختلف أصنافه، إلى جانب معرفة العالم الخاص بالحيوانات التي كانت تحيط به وتعيش معه أو قبله من خلال دراسة البقايا العظيمة المستحاثية للأنواع الحيوانية.

وخلاصة القول بما أنّ الأنتروبولوجيا هو العلم الذي يدرس الإنسان لذاته وفي ذاته عبر مراحل تطوّره وتطوّر مظاهر الحياة، فلا بدّ من أن يكون على صلة وثيقة بالعلوم الأخرى لاسيما منها الإنسانية، ويشكّل رفقتها منظومة من المعارف والموضوعات التي تفيد الإنسان، وكما ذكرناه أعلاه فإنّه علم يرتبط بعلوم كثيرة: علم الأحياء أو البيولوجيا، علم الاجتماع، علم النفس، والجغرافيا والجيولوجيا وعلوم أخرى كالفلسفة والفنون والكيمياء وغيرها لم يسعفنا الوقت لذكرها كاملة والتفصيل فيها.

قائمة المصادروالمراجع:

- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الأنتروبولوجيا في المجال النظري، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1988.
- كريستوف فولف، علم الأناسة: التاريخ والثقافة والفلسفة، ترجمة: أبو عريب المرزوقي، دار المتوسطة للنشر، أبو ظبي، الإمارات العربية المتّحدة، ط1، 2009.
- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، منشورات إتّحاد كتّاب العرب، دمشق، ط1، 2004.
- عيسى محمد طلعت، مدخل إلى علم الاجتماع، دار المعارف، بيروت، ط1، 1986.
- رالف لينتون، الأنتروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة: عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط1، 1967.
- قباري إسماعيل، أصول الأنتروبولوجي العامة، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط4، 1998.

المحاضرة رقم 5

تاريخ الأنتروبولوجيا

لقد اختلفت المصادر والمراجع حول نشأة الأنتروبولوجيا، وإذا قيّدنا أنفسنا بهذا العلم كفرع من فروع المعرفة، يمكن للبعض أن يتعقبه بالعودة إلى عصر التنوير الأوروبي خلال القرن الثامن عشر. وادّعى البعض أنّ الأنتروبولوجيا لم تبرز كعلم حتى خمسينات القرن التاسع عشر، وجادل الآخرون ذلك قائلين أنّ البحث الأنتروبولوجي بمعناه المعروف حاليا أُستهل فقط بعد الحرب العالمية الأولى. وممّا لا شكّ فيه أنّ الأنتروبولوجيا اعتبرت علما للإنسانية، نجد أصولها في المنطقة التي نطلق عليها الغرب وبالتحديد في كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتّحدة الأمريكية. أمّا تاريخيا فإنّ هذا الفرع من فروع المعرفة الأوروبية يجد جذوره بين فترة وأخرى بالعودة إلى اليونانيين القدامى. وربّما كان الأمر أقدم من ذلك إذ يعود إلى الحضارة المصرية القديمة أين نجد رحلات تجارية قام بها المصريون نحو الجنوب متتبّعين نهر النيل، أو ربّما إلى الصينيين وأجناس أخرى تبّنت بعض إجراءات الأنتروبولوجيا دون الاستعانة بهذا المصطلح ودلالاته. وسنرصد هنا أهمّ محطّات ظهور الأنتروبولوجيا في حضارات العالم عبر العصور.

1. عند المصريين القدماء:

إنّ البداية الأولى لهذا العلم كانت مع المصريين القدامى تقريبا عام 1493 قبل الميلاد من خلال الرحلات التاريخية القديمة التي كان يقوم بها التجار إلى بلاد بونت (الصومال) وأيضا إلى بلاد السودان والحبشة وكانت بهدف تجاري أكثر من أي شيء آخر، وكانت بضاعتهم تضمّ البردي والعطور والبخور والأدوية التقليدية العشبية وأدوات النحت وبعض المواد الغذائية وغيرها ... كما استطاع المصريون أيضا من الحصول على بضاعة تساعدهم في حياتهم اليومية ومن هنا كانت الانطلاقة الأولى للتبادل الثقافي بين الشعوب. ونتج عن هذا التبادل اتصال المصريين بالشعوب الإفريقية لاسيما فئة الأقزام، وهو ما توضّحه النقوش التي صُوّرت في معبد الدير البحري وهي تمثّل ملك وملكة بلاد بونت وهما يستقبلان الوفد المصري الذي يدخل إلى القصر.

2. عند الإغريق:

أمّا عند اليونانيين فالبداية كانت مع "هيرودوت" في القرن الخامس قبل الميلاد وكان رحّالة محبّا للأسفار وهو أوّل من وصف الشعوب ودوّن عادات وتقاليد الشعوب المجاورة عبر حوض البحر الأبيض

المتوسط من حيث النواحي السّلالية والثقافية واللّغوية والدّينية، كما يعتبر أوّل من طرح فكرة وجود تنوّع وفوارق بارزة في الملامح الجسدية للإنسان. ولذلك يعتبره العلماء أوّل مؤرّخ أنتروبولوجي في التاريخ حتّى لُقب بأبي التاريخ. وفي البداية درس الشعوب المجاورة لبلاد الإغريق كالشعوب المصرية والليبية والكنعانية أوّلها مصر وهو القائل في شأنها: "مصر هبة النيل" من حيث إنّ النيل هو الذي جعل هذا البلد يستقرّ على عرش الحضارات القديمة. ودوّن عن آلهة مصر: إيزيس ورع وأوزيريس ... وعن ملوكها وملكاتها أيضا.

كما دوّن عادات وتقاليد الشعوب الليبية (الأمازيغية) القاطنة بالساحل الشمالي لإفريقيا وتحدّث عن تأثير هذه الحضارة في الحضارة اليونانية، فيقول في هذا الصّدد: "يبدو أنّ ثوب أثينا ودرعها وتماثيلها نقلها الإغريق عن النساء اللّيبيات، غير أنّ لباس اللّيبيات جلدي، وأنّ عذبات دروعهن مصنوعة من جلد الماعز ليست ثعابين، بل هي مصنوعة من سيور جلد الحيوان. وأما ما عدا ذلك، فإنّ الثوب والدرع في الحالتين سواء. ومن اللّيبيين تعلّم الإغريق كيف يقودون العربات ذات الخيول الأربعة ...".

ويجمع الكثير من علماء الاجتماع على أنّ هذه الإسهامات المبكّرة والجادة التي قدّمها "هيرودوت"، ومنهجه القائم على دراسة وصفية لثقافات الشعوب وحياتهم ونظمهم الاجتماعية، إنّما تنطوي على بعض أساسيات المنهج الأثنوغرافي المتعارف عليها في العصر الحديث، لتكون فاتحة للدّراسات الأنتروبولوجية عموما.

ويمكن لنا أن نؤكّد هذه الإسهامات العملاقة التي جاء بها "هيرودوت" بما ذكره باحث الأنتروبولوجية الاجتماعية "جيمس فرايزر" (James Frazer) في كتابه "الغصن الذهبي" إذ أشار في جزء من أجزاء هذا العمل إلى إلى ظاهرة التحكّم السحري في الرّياح وذلك عبر أصقاع مختلفة من المعمورة، ويشير قائلا: " يعتقد البدائيون أنهم قادرون على صنع الرّياح أو تهدئتها". وأشار إلى قبائل شمال أفريقيا ونعني هنا الشعوب الأمازيغية التي تحارب وتدفع الرّياح، إذ يشير "جيمس فريزر" –برواية دوّنها عن "هيرودوت" وهي صادقة تماما حسب رأيه- دائما إلى أنّ هذه الشعوب تعتبر الرّياح كائنا شريرا يمكن إبعاده أو توجيهه أو حتى قتله، وذات مرّة هبّت رياح قويّة من الصحراء الكبرى وجففت المستودعات المائية، ليتداول النّاس فيما بينهم وساروا سوية ناحية الجنوب لمحاربة الرّياح ولكنّهم وللأسف هلك الكثير منهم ونجا الآخرون، ونقلوا الرّواية لأسلافهم. وهو الأمر الذي عايناه على إثر عمل ميداني قمنا بانجازه بعنوان "منظمة الفكر الأسطوري بمنطقة القبائل"، إذ يروي عن أهالي قرية "أيت عطلي" بسفوح جرجرة أنّهم وفي الزّمن البدئي كانوا يتصارعون مع الرّياح، حينما لا يريد الانصراف، نظرا لما يسبّبه من عراقيل يومية لأهالي القرية، إذ

شوهدوا وهم يخرجون لمحاربته مدججين بالسّيوف والرّماح ونساؤهم مسلّحات بالحطب والنيران المتوهجة، وكذا بالأواني المنزلية وتمكّنوا فعلا من القضاء عليه وقتله.

كما ظهر "أرسطو" بفكره التطوري وذلك من خلال ملاحظاته وتأمّلاته في التركيبات البيولوجية وتطوّرها في الحيوان ... كما كان له دور كبير في وصف نشأة الحكومات وتحليل أشكالها. وهو ما يمكن اعتباره مساهمة مبدئية وهامة في دراسة المجتمعات الإنسانية ونظمها الاجتماعية. وهكذا نجد أنّ إسهامات الإغريق كانت جدّ حاسمة في إنشاء علم مستقل يدرس الإنسان، وتجدر الإشارة إلى أنّ اليونانيين أخذوا الكثير عن الحضارات التي سبقتهم والتي جاورتهم وتمخض عن ذلك ظهور الحضارة الهيلينية التي ازدهرت لاحقا.

3. عند الرومان:

أمّا عند الرومان فقد انتهجوا في بداية دراستهم للمجتمع النموذجي اليوناني القديم، ولكنّهم لم يأخذوا بالنماذج المثالية المجرّدة لحياة الإنسان بل وجهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس، وعلى الرّغم من ذلك تنعدم إسهامات أصلية في نشأة علم مستقلّ لدراسة الشعوب وثقافاتهم. ويمكن أن نشير إلى جهود "كاروس لوكريتيوس" التي ضمّت أفكارا اجتماعية هامة حيث وضع فكرتي: التطوّر والتقدّم ونظام الملكية والحكومة ونشأة اللّغة ومناقشة العادات والتقاليد والفنون والأزياء ... وصوّر مسار البشرية عبر العصور الحجرية فالبرونزية وأخيرا الحديدية، ومنه نهل الأنتروبولوجي الحديث مورغان لويس فكرة التقدّم والانتقال من مرحلة إلى أخرى، كما احتوت كتاباته أفكارا تتعلّق بطبيعة الكون ونشأة الإنسان وتطوّره. ورغم ذلك فقد اهتمّ الرومان بربط السلالات البشرية بإمكانية التقدّم الاجتماعي والحركة الحضارية، واعتبروا أنفسهم أفضل الشعوب، حتى أنّهم وإن أرادوا أن يرفعوا من قدر إنسان أو شأن سلالة، أصدرت الدولة قرارا بمنح الجنسية الرومانية للإنسان الأجنبي، وفي حقيقة الأمر هذه الميزة تنتشر في سائر الحضارات القديمة لاسيما المشرقية منها.

4. عند الصّنيين:

كان الصّينيون يعيشون في حدود جغرافية مغلقة ينعمون بالأمن والهدوء، وكانت لديهم مقاطعات إمبراطورية منفصلة فيما بينها، تجمعهم علاقات دموية قويّة ويساندون بعضهما البعض حينما يدقّ ناقوس الخطر، ووصل بهم الأمر إلى أن أحاطوا بمملكتهم بسور عظيم يحميهم من الغزوات والهجمات التي تأتيهم من الشمال، وكانوا مكتفين ذاتيا من الناحية الاقتصادية المعاشية، حتّى أنّ أغلب رحلاتهم التجارية

كانت داخلية بحكم شساعة رقعتهم الجغرافية أيضا، وكانت اتصالاتهم بالشعوب المجاورة محتشمة ولم يتأثروا بسواهم كثيرا، ما عدى بعض المحاولات التجارية والحروب المستمرة التي خاضوها مع الشعوب المجاورة. ومع ذلك فكانت لديهم محاولات في الكتابات الوصفية لشعوبهم والشعوب المجاورة لهم والتي يعتبرونها بدائية وعدوانية، كما كتبوا كتبا كثيرة تتناول المجتمع والأخلاق والقيم السائدة في أوساطهم وضرورة الالتزام بها، والتنمية وطرق التعامل والزواج والأعراف والقوانين لأنّه وحسب ثقافتهم يعتبر معرفة الأنماط السلوكية التي ترتبط بالبناء الاجتماعي، تسهم في تقديم الدليل الواضح على التراث الثقافي لأي مجتمع.

5. عند العرب والمسلمين:

كانت لإسهامات العرب والمسلمين بداية من القرن السابع للميلاد بصمات جدّ هامة، وازدهرت الحضارة العربية الإسلامية وتضمّنت الآداب والأخلاق والفلسفة والمنطق والطب والفلك وغيرها ... وأُشتهر هؤلاء في إعداد الموسوعات الكبيرة والمعاجم الجغرافية، ويمكن أن نمثّل: "بمسالك الأمصار" لأبي فضل الله العمري، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي، و"نهاية الأرب في فنون العرب" للنويري، نضيف إليها الكتابات الموسوعية الخاصة بشؤون العمران والتي تميّزت مادتها بالاعتماد على المشاهد والخبرة الشخصية. ونضيف إسهامات أخرى مثل "البيروني" في وصفه لإقليم الهند في كتاب تحت عنوان: "تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، بالإضافة إلى رحلات "ابن بطوطة" وكتاباته التي تحوي خصائص أثنوغرافية، برزت في وصف حياة الناس اليومية وعاداتهم، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكهم وقيمهم وتقاليدهم، ومن أمثلة هذه الأوصاف ما كتبه عن أهل السودان قائلا: "فمن أفعالهم قلّة الظّلم، فهم أبعد النّاس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاضب. ومنها عدم تعرّضهم لمال من يموت في بلادهم من البيض ولو كان القناطير المقنطرة، وإنّما يتركونه بيد ثقة من البيض، حتى يأخذه مستحقّه".

دون أن ننسى إسهامات وأعمال عالم الاجتماع الفذّ العلامة "ابن خلدون" في كتابه الذي يحمل عنوان: "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، والذي نال به شهرة واسعة بسبب مقدّمته: "في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذّاتية من الملك والسلطان، والكسب والمعاش والمصانع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب". وتحدّث فيه عن الدّراسات التي أجراها وأبدى ملاحظاته الواقعية حول عادات وتقاليد مجتمعات شمال إفريقيا، وكانت

أغلبها قوانين مستمدّة من ملاحظاته لظواهر اجتماعية. كما درس "ابن خلدون" العوامل البيئية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية التي أثّرت على تطوّر الحضارات وقيامها وسقوطها، فبالتالي أجرى معينات وصفية إثنوغرافية وموضوعية بشكل ملحوظ للثقافات والشعوب الأمازيغية المقيمة بشمال إفريقيا. ويعتبر "ابن خلدون" التطوّر هو سنّة الحياة الاجتماعية، وهو الأساس الذي تستند إليه دراسة الظواهر الاجتماعية. ويقول في ذلك: "إنّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ، وإنّما هو اختلاف على الأيّام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول"، فالدولة بذلك شأنها شأن الإنسان ينمو ويكبر ويشيخ ويزول. وخلاصة القول إنّ "ابن خلدون" قد أسّس المنهجية الرئيسية للدراسة المجتمعات البشرية، فكان أسبق من علماء الاجتماع في الغرب، فهو بذلك المؤسّس الفعلي لعلم الاجتماع. وهو ما أكّده الكثير من علماء الغرب مثل: "جون هونجيمان"، و"مارفين هاريس" وغيرهما ...

6. عند الغرب:

بدأت بوادر النهضة بأوروبا في أواخر القرن 14 للميلاد، حينما عكف الغرب على دراسة انتقائية للعلوم والمعارف الإغريقية والرومانية والعربية الإسلامية، وحركة استكشافات الجغرافية التي شاهدتها الدول الأوروبية نحو القارات الأخرى والعالم الجديد (أمريكا)، وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي في دراسة الظواهر الطّبيعية. ويرى علماء الاجتماع أنّ الأصول النظرية الأولى لعلم الأنتروبولوجيا قد ظهرت مع عصر التنوير. وقد سُجّلت بعض الأعمال منها ما يتحدّث عن خصائص جسم الإنسان وعادات وتقاليد الشعوب المختلفة، وكان ذلك في القرنين 15 و16 للميلاد. وهو ما دفع بالعلماء والباحثين في مجال الأنتروبولوجيا إلى القول بأنّ القرن 18 كان البداية الفعلية لدراسة الشعوب والمجتمعات البدائية. وشهد القرن 18 أعمال كثيرة لمجموعة من المفكّرين والفلاسفة أمثال الفيلسوف الفرنسي "تشالز لويس مونتيسكيو" الذي قدم كتابا بعنوان: "روح القوانين" جاء فيه حديث عن مجتمعات مختلفة من حيث عاداتها وتقاليدها قابلة للتغيير، كما بيّن العوامل المؤثرة في حياة هذه المجتمعات وضرورة مراعاتها عند سن القوانين المنظمة لشؤون حياتها.

وبرزت الأنتروبولوجيا الاجتماعية كعلم قائم على دراسات المجتمع الإنساني، وكان لذلك الأثر العظيم في القرن 19 إذ أصبحت الأنتروبولوجيا ذات طابع أكاديمي، وظهرت أسماء لامعة في الاتجاه الكلاسيكي التطوري ونذكر من بينهم "لويس مورغان"، الذي يعزى له الانطلاقة الأولى للتطوّرية مع نشر بحث بعنوان

"عصبة الايروكيز" سنة 1851 أبرز فيه النظام الأمرسي (le système matriarcat) السائد وسط الإيروكيز. وكان اهتمامه بنظم القرابة والنظم الاجتماعية والسياسية كبيراً مما دفعه للقيام برحلات واسعة بين الأمريند، كما أشرف على تدريس الأنثروبولوجيا في جامعة أوكسفورد. ونذكر أيضا أعمال "إدوارد تايلور" من خلال مؤلفاته مثل "أبحاث في التاريخ المبكر للبشرية وتطور المدنية" في عام 1869 والذي أعقبه كتابه "المجتمع البدائي" في عام 1871 وقد انطلق من وجهة نظر تطورية. كما ظهرت اتجاهات أخرى في الحقول الأنتروبولوجية مع الاتجاه الانتشاري والذي يقود "ليو فروبينيوس" و"فريدريك راتزل" و"هاينرينج شورتز" و"فرانز بواز" ... ومع الاتجاه الوظيفي الذي اقترن بصورة أساسية بالأنتروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا بأسماء "بورنوسلاف مالينوفسكى" و"رادكليف بروان" و"جيمس فرايزر" ... والذين قدّموا أعمالا خالدة مثل Les Argonautes du Pacifique occidental لمالينوفسكي وعمله الآخر بعنوان: La vie sexuelle des sauvages (du Nord-Ouest de La Mélanésie) وإسهامات أخرى في التطورية الجديدة منقبل "سبنسر" وآخرين.

وصفوة القول أنّ الأنتروبولوجيا كعلم قائم على ذاته، ومكتمل المعنى والدّلالة لم يظهر إلا في القرن التاسع عشر بأوروبا، حينما شهدت حركة علمية رفيعة المستوى، وسيطرت على أجزاء كبيرة من المعمورة على إثر حركاتها الاستعمارية، وذلك بغية القيام بدراسة ميدانية ومعرفة تاريخ تلك الأقوام المنتشرة هنا وهناك والتي تختلف عاداتها وتقاليدها وأعرافها، ولكنّنا لا يمكن أن ننكر أيضا تلك المحاولات الأولى التي قامت بها أجناس العالم والتي يمكن لنا أن نصنّفها في خانة الأنتروبولوجيا ولاسيما الإغريق منها حينما حدّدوا مصطلح الأنتروبولوجيا على أنّه يتكوّن من مقطعين: "أنتروبوس" تعني الإنسان و"لوجوس" تعني العلم أو المعرفة ليدلّ معناها من حيث اللّفظ: "علم الإنسان"، أي العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي يعيش في مجتمع.

قائمة المصادروالمراجع:

- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، إتحاد كتّاب العرب، ط1، دمشق، 2004.
- توماس هايلاند إيركسون وفين سيفرت نيلسون، تاريخ النظرية الأنتروبولوجية، ترجمة: لاهاي عبد الحسين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.
- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الأنتروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي للحديث (جامعة أسيوط)، الإسكندرية، ط2، دت.
- نخبة من أعضاء هيئة التدريس، تح: محمّد عباس إبراهيم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2009 .

- حسين فهيم، قصّة الأنتروبولوجيا: فصول في تاريخ الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، العدد 198، الكويت.
- أحمد الخشاب، دراسات أنتروبولوجية، دار المعارف، ط2، القاهرة، 2009.
- Jean Copans, Introduction à l'Ethnologie et à l'Anthropologie, Nathan, Paris, 1996.
- Rédigé par un groupe de chercheurs, L'anthropologie de la Méditerranée, Maisonneuve, Maison méditerranéenne des sciences de l'homme, Paris, 2007.

المحاضرة رقم 6

الأنتروبولوجيا الطّبيعية:

1. تعريفها :

تعرف **الأنتروبولوجيا الطّبيعية** على العموم بأنّها العلم الذي يبحث في شكل الإنسان من حيث سماته العضوية، والتغيّرات التي طرأت عليها بفعل المورّثات، كما يبحث في السلالات الإنسانية من حيث الأنواع البشرية وخصائصها. فهو علم يركّز حول ا إنسان أو الفرد بوصفه نتاجا لعملية عضوية، ومن ثمّ دراسات التجمعات البشرية أو السكانية وتحليل خصائصها. ويطلق على الأنتروبولوجيا الطّبيعية أيضا تسمية الأنتروبولوجيا الفيزيائية أو البيولوجية، وتهتمّ بمجالات ثلاثة هي:

المجال الأوّل: ويشمل إعادة بناء التاريخ التطوّري للنوع الإنساني، ووصف وتفسير التغيّرات التي كانت السبب في انحراف النوع الإنساني عن السلسلة التي كان يشارك فيها.

المجال الثاني: يهتمّ بوصف وتفسير التغيّرات البيولوجية عند الأحياء من الجنس الإنساني، وتمتدّ هذه الأبحاث لتشمل العلاقة الكامنة بين التركيب البيولوجي والثقافة والسلوك.

المجال الثالث: وهو تخصّص هام يبحث في الرئيسيات: علاقاتها مع بيئاتها، تطوّرها وسلوكها الجماعي.

إنّ الموضوع الرئيسي في الأنتروبولوجيا الطّبيعية هو الاختلاف البيولوجي الذي يطرأ على الإنسان في كل زمان ومكان. فثمة تأثيرات طبيعية لها صلة بالتغيّر مثلا: الحرارة والرطوبة والبرودة والارتفاع وأشعة الشمس والمرض والأوبئة ...

ويعتبر الباحث الألماني "يوهان بلومينياخ" المؤسّس الأوّل للأنتروبولوجيا الطّبيعية، وهو من رواد دراسة الجماجم البشرية، كما أنّه قسّم الجنس البشري إلى خمسة أقسام هي: القوقازي، المغولي، الأثيوبي، الأمريكي، الملاوي ...

2. اهتمامات الأنتروبولوجيا الطّبيعية:

تضطلع الأنتروبولوجيا الطّبيعة بدراسة الخصائص الجسمية والتشريحية للإنسان، ومن المسائل الرئيسية التي تعالجها: تصنيف الأجناس البشرية ودراسة الملامح الطّبيعية للإنسان القديم أو الحفري ومقارنتها بملامح الإنسان الحديث مثل: قياس الجمجمة، وحجم الدّماغ وطول القامة ولون البشرة وشكل الشعر ... كما تسعى إلى معرفة خصائص العنصر البشري للتعرّف على نمط الوراثي لسائر الأجناس البشرية مع تتبّع التاريخ البيولوجي لمختلف أجناس البشر وكيفية انتقال الخصائص الجنسية والملامح العنصرية بهجرتها من شعب إلى آخر وحركتها في المكان الاجتماعي الفسيح، وانتقالها أيضا من كلّ ما يطرأ من تغيّر خلال حركة الأجيال المتتابعة على مسرح تاريخ الجنس البشري وهو ما يطلق عليه تسمية: Human-Genitic

تقوم الأنتروبولوجيا الطّبيعية بدراسة الأجناس البشرية لوصف العمليات التطوّرية التي يكتسب الإنسان في أثنائها سائر الخصائص الطّبيعية الجديدة، تلك التي تميّزه عن صفات وخصائص الإنسان القديم مع إيجاد الفروق التشريحية بين الإنسانيات والآدميات أو أشباه الإنسان المتّصلة بالقردة العليا وسائر الرئيسيات، فظهر أنّ أهم الخصائص البشرية هي اعتدال القامة وانتصابها والمهارة اليدوية وثنائية الأبصار والقدرة على الكلام أو النطق، بالإضافة إلى تركيبة الجمجمة وحجمها وتعقّد وظائفها. وهذا التركيب المعقّد يتيح الفرصة للإنسان العاقل إظهار قدرات يتميّز بها عن سائر الرئيسيات أو المخلوقات.

وأكّدت التجارب التي أجريت على القردة العليا أنّ الشمبانزي يمتاز بقدرة ذكائية ملحوظة، كما أوضحت أنّ أذكى القردة العليا لا تستطيع الكلام أو ابتكار أدوات جديدة تستخدمها لتعديل حياتها أو تطوّرها. ونخلص إلى أنّ دماغ الإنسان يُعتبر خاصية فيزيقية وتشريحية تميّزه عن أشباهه من العائلة الرئيسية في رتبة واحدة. ويمكن تحديد اهتمامات الأنتروبولوجيا الطّبيعية في ما يلي:

- محاولة الكشف عن الإنسان المبكر ومقارنته بالإنسان المعاصر.

- دراسة التأثير المتبادل بين الإنسان والبيئة الطّبيعية ومكوّنات عناصر البيئة سواء الأرض والماء والهواء والكائنات الحيّة.
- تهتمّ أيضا بالكشف عن التنوّع السلالي والإنساني حتى يمكن فهم مشكلة التكيّف البشري.

3. فروع الأنتروبولوجيا الطّبيعية: تنقسم إلى قسمين أساسيين هما:

فرع الحفريات البشرية:

وهو العلم الذي يدرس الجنس البشري من نشأته ومراحل تطوّره، من خلال الحفريات والآثار التي خلّفها. ومهمّة هذا الفرع هو التعرّف على ا إنسان البدائي ومحاولة تحليل مستويات حيته تلك من خلال ما تبقى من أدوات وأثار وغيرهما ... كما يحاول هذا الفرع الإجابة عن تساؤلات تدخل ضمن الاختلاف الموجود بين الجنس البشري فمثلا تمّ اكتشاف أن جمجمة الإنسان في العصور القديمة أصغر بكثير من الجمجمة الحالية ... إضافة إلى بروز فكّيه وغور عينيه وعرض جبهته.

فرع الأجناس البشرية أو الأجسام البشرية:

وهو الفرع الذي يدرس الصفات العضوية للإنسان البدائي (المنقرض) والإنسان الحالي، من حيث الملامح الأساسية والسمات العضوية العامة، ولذا كرّس علماء الأجسام معظم جهودهم لدراسة الأصناف البشرية ورصد الفروقات بينها، ومحاولة معرفة الأسباب المحتملة لهذه الفروقات، ويلاحظ أنّ اهتمامهم انصبّ –إلى عهد قريب جدا- على تصنيف الأجناس البشرية المختلفة على أساس العرق.

4. المجالات التي تدرسها الأنتروبولوجيا الطّبيعية:

تختصّ الأنتروبولوجيا الطّبيعية بدراسة مجالات عديدة وهي على هذا النحو:

أ/ العظام والأسنان:

تعتبر العظام والأسنان من الأجزاء الرئيسية التي يُستدلّ بها على التطوّر البشري، فهي من الأجزاء الوحيدة التي لا تفنى بمرور الزمن وتزوّد المختصّين بالمعلومات الخاصة بتاريخ الإنسان الطّبيعي وتطوّره، باستخدام أشعة x-ray وعن طريق الأسنان يمكن أيضا تحديد هوية الحيوانات ونوعيته إن كان مثلا من آكلات العشب أو آكلات اللحوم، ومن خلال طولها وعرضها وارتفاعها تكشف عن السمات والخصائص التي تميّز الإنسان في كلّ فترة تاريخية من حياته.

ب/ الإيكولوجية البشرية:

يهتمّ هذا الفرع بالوسائل التي استخدمها الإنسان للتكيّف مع البيئة وظروفها المتنوّعة، والتي تتباين بتباين السن والجنس والسلالة، فنجد مثلا أنّ طبيعة الغذاء تختلف من مكان إلى آخر، كما أنّ طبيعة العمل أيضا تؤثّر في صحّة الإنسان إذ يتعرّض للمرض والتلوّث حينما يكون عمله في المناجم والمحاجر ومصانع الغزل أو القطن أو مواد أخرى تضرّ بصحّته.

ت/ علم الأجنة والنمو:

يختصّ هذا العلم بدراسة حركة الجنين داخل الرحم وصولا إلى آخر لحظات حياته، مرورا بمراحل مختلفة من حياته، أي يتابع عملية النمو بعد الولادة خلال المراحل العمرية المتتالية، وكذا التغيرات والتطوّرات في ملامحه الفيزيقية كالحجم والطّول والوزن والقامة، وأيضا دراسة التشويهات التي تصيب الإنسان والتي يتبعها خلل وظيفي بالجسم.

ث/ تركيب الجسم وبناؤه:

كما تختصّ الأنتروبولوجيا الطّبيعية باستخدام مناهج جديدة لدراسة تكوين بنية الجسم البشري من حيث القوّة والضعف، مثل أشعة x والموجات الصوتية.

ج/ البيولوجية الجزئية:

وهي التي تحدّد التشابه أو التوافق أو التباين في السمات الفيزيقية الجزئية للجنس البشري المعاصر وأسباب هذا التنوّع، كما تهتم أيضا بالكائنات الحيّة الأخرى عن طريق تنوّع فصائل الدم وأنواع الهيموجلوبين.

د/ علم الوراثة:

يهتمّ هذا الفرع بالمورثات البيولوجية والتغذية وأثرها على المكوّنات الجزئية الأساسية لخلايا الجسم، وما تُنتجه هذه الخلايا من سوائل كالإدرار والدم، ومدى حدوث أمراض معيّنة وانتشارها في سلالة معيّنة.

ر/ الرئيسيات:

وهي دراسة الحيوانات الثدية التي تشبه الإنسان ومقارنته بها، لتحديد التباين والتنوّع في الملامح التشريحية أو تشابهها مثل طريقة السير على القدمين أو على أربع أقدام وأنماط السلوك كالتعاون والمؤازرة والعنف والعدوان وغيرها ...

ز/ التطوّرات البشرية:

تختصّ الأنتروبولوجيا الطّبيعية بدراسة التغيّرات والتطوّرات وهما على نوعين: التطوّرات الكبرى، وهي التي تُدرس من خلال الحفريات وهي بطيئة ومتحوّلة. أمّا التطوّرات الصغرى فتتمّ داخل جيل واحد أو عدد قليل من الأجيال، ويتمكّن الباحث من معاصرة عمليات التطوّر التي تؤدّي إلى تغيّر في بعض الجماعات التي تنتمي لنوع واحد خلال فترة زمنية محدّدة، وسببها مجموعة من العوامل كالمناخ والغذاء أو الاختلاط والزواج خراج الجماعة وغيرها ...

ه/ الوراثة السكانية:

يبحث هذا المجال في الديناميات الوراثية لدى الكائنات الحيّة ويهتمّ بالمواليد والوفيات والزواج والغذاء والصّحة وأثرها على العمليات الوراثية التي تؤدّي إلى تباين وتنوّع السمات البيولوجية للأفراد والجماعات.

و/ أنتروبولوجيا الطب الشرعي:

يختصّ هذا الجانب بدراسة الجوانب الشرعية أو القانونية التي لها علاقة بالعظام والهياكل العظمية، ومدى تحللّها وإصابتها بالتعفن والتلف، وكذلك البقايا البشرية التي تهتمّ بكل الأسباب، وتُستخدم أدوات حديثة ومتطوّرة في سبيل التعرّف على تلك البقايا وأيضا محاولة اكتشاف الجرائم المرتكبة، وتحديد العمر والسلسلة النسب والكشف عن ملامح الشخص المتوفى.

ي/ الملامح الفيزيقية للأجناس:

قبل استعراض هذه الملامح لا بدّ أن نشير أنّ علماء الأنتروبولوجيا الطبيعية قسّموا الأعراق البشرية إلى ثلاثة عروق أساسية وهي على هذا النحو:

العرق الأبيض (القوقازي): يندرج ضمنه عرق البحر الأبيض المتوسط، العرق الهندي، العرق الألبي (وسط أوروبا وغربها) والعرق النوردي (الإيرانيون والأفغان والسلاف والأفغان والبربر، والعرب والمصريون والأثيوبيون)

العرق الأسود (الزنجي): ويمثّل هذا العرق: زنوج أمريكا وأفريقيا والحاميون النيليون بمصر وجزر ميلانيزيا وبعض جزر المحيط الهادي.

العرق الأصفر (المغولي): ويمثّل هذا العرق المغول الأصليون (الإسكيمو، اليابانيون، الكوريون، والصينيون) وكذلك الأتراك وسكان الهند الصينية والإندونيسيون، والهنود الأمريكيون، وسكان التبت. وتكون هذه الاختلافات الشكلية هي العوامل الأساسية التي يُعتمد عليها في الدراسات الأنتروبولوجية للتمييز بين الأفراد والمجتمعات، إلا أنّ الكثير من العلماء يضيفون عوامل أخرى للتمييز بين الأعراق يتمثّل في نسبة الذكاء، مع أنّ هذا العامل لم تثبته الدّراسات، بينما يميل معظم الباحثين إلى نبذ حتى الفكرة القائلة بأنّ تقدّم شعب من الشعوب في مدارج الحضارة، يقيم دليلا غير مباشر على قدرات هذا الشعب الفطرية، وقد تأثّر أغلب هؤلاء العلماء بالدور الذي يؤدّيه انتشار الثقافات في تحقيق التقدّم وبأثر الأحداث العَرضية في تحقيق التقدّم.

تنقسم هذه الملامح إلى قسمين بارزين هما:

أ/ الصّفات السطحية: وتشمل على ما يلي:

1/ لون البشرة: يختلف البشر في لون بشرتهم، وهذا الأمر يعود إلى وجود حبيبات ملوّنة توجد في طبقات الجلد العميقة، وأيضا إلى الظروف الفيزيقية كالضوء والحرارة والرطوبة، وتلعب الشمس وأشعتها فوق البنفسجية دورا كبيرا في لون البشرة، فكلّما اتّجهنا صوب خط الاستواء كلما مال لون البشرة إلى الداكن، وإذا اتّجهنا نحو المناطق الباردة شمالا تندرج البشرة إلى اللون الفاتح.

2/ شكل الشعر ولونه: ينقسم الشعر حسب علماء الأنتروبولوجيا الطبيعية إلى ثلاثة أنواع:

الشعر المستقيم الخشن: ويتّصف به الجنس المغولي ولونه أسود حالك ينمو بطريقة سريعة جدا، ويمثّل هذا العرق الصينيون، الأتراك، سكان الهند الصينية وإندونيسيا، وهنود أمريكا وسكان التبت والكوريون واليابانيون والإسكيمو.

الشعر المموج والمجعد: يسود هذا النوع عند الجنس القوقازي وهو ناعم ومستقيم ويسوده اللون الأشقر بدرجاته والأصفر الذهبي والبني الفاتح، ويتضمّن شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط والعرق الهندي وأوروبا وغرب آسيا.

الشعر الصوفي المفلفل: ويميّز المجموعة الزنجية في إفريقيا وجزر ميلانيزيا والغابات المدارية المطيرة، وهو على نوعين فقد يكون قصيرا أشعثا وقد يكون رطبا وقليل النعومة، ويمثّل هذا العرق: زنوج أفريقيا وأمريكا والحاميون النيليون في مصر والسودان وسكان جزر المحيط الهادي.

3/ لون العين وشكلها: هناك ألوان كثيرة، ويمكن حصر أهمّها ما بين الأزرق والعسلي والأسود، وتكون العين الفاتحة صفة للسلالات الشمالية، والعسلية تسود الجنس المغولي، تحوي على ثنية في الجفن العلوي، بينما يتميّز الزنوج بعيون سوداء تتّسم بالاتّساع وعدم اقتران بين الحواجب.

4/ شكل الأنف: يوجد أشكال كثيرة تنتشر عبر أصقاع الأرض الأنف المفلطح والأنف الغليظ والأنف المدبب والأنف المعكوف أو المقوّس.

5/ ملامح الوجه: تُقاس ملامح الوجه عن طريق بروز الفك أو البروز الرأسي، وهو قياس درجة بروز الفكّ العلوي للأمام، ويكون الوجه والبروز لدى القوقازيين ضيقين، أما الوجه لدى المغول فيكون أوسع والبروز فيه مسطح، بينما يكون وجه الزنوج واسعا مع بروز الفك العلوي.

6/ الشفاه : تنقسم عادة إلى أربعة أنواع، الرفيعة منها تمتاز بها الشعوب القوقازية، والمتوسطة تمتاز بها الشعوب المغولية، بينما تكون السميكة والغليظة سمة الشعوب الزنجية.

ب/ الصفات الهيكلية: وتتمثّل في طول القامة، ويعتمد علماء الأنتروبولوجيا الطّبيعية على خمسة تصنيفات هي:

- الأقزام ويقلّ طولهم عن 148 سنتيمتر.
- قصير القامة، ويتراوح طوله ما بين 148-158 سنتيمتر.
- متوسّط القامة، ويتراوح طوله ما بين 158-168 سنتيمتر.
- طويل القامة، ويتراوح طوله ما بين 168-172 سنتيمتر.
- طويل القامة ما يزيد عن 172 سنتيمتر.

وترتبط القامة بالجنيات الوراثية، وهناك من يربط بين طول الجسم المتزايد مع المناطق الحارة، أمّا في المناطق الباردة تنعكس على الأنف والأذنين وأصابع القدمين واليدين، فهي قصيرة ودقيقة، وتكون القامة في القطب الشمالي والإسكيمو قصيرة تختزن الحرارة، وفي المناطق الصحراوية يتّسم أفرادها بطول القامة

والنحافة ورقة العظام. وتعتبر القامة من السمات الجنسية الأساسية في تصنيف البشر سواء الأحياء أو الأموات، وعادة ما يزيد الرجال عن النساء بنمو يقدّر بعشرين سنتيمتر لدى كلّ سلالة.

وخلاصة القول إنّ الأنتروبولوجيا الطّبيعية تهتمّ بتطوّر الأنواع البشرية في الماضي والحاضر، ودراسة أسباب التنوّع البشري الحالي، وتشمل مجالات متباينة مثل: علم الحفريات البشرية وعلم الأحياء التطوّري وعلم الوراثة البشرية وعلم التشريح المقارن وعلم وظائف الأعضاء وسلوك الرئيسيات وعلم الأحياء البشري، كما يغطّي هذا النوع من الأنتروبولوجيا مجالات الاختلاف البيولوجي البشري والإيكولوجي والتغذية وحتى الديموغرافية، وكلّ هذا يجعلنا نقرّ بطبيعتها الفريدة من نوعها إذ إنّ كلّ هذه المجلات تؤثّر على فهمنا لحالة الإنسان.

المصادر والمراجع:

- ناصر إبراهيم، الأنتروبولوجيا الثقافية (علم الإنسان الثقافي)، دار صابر، بيروت، ط1، 2001.
- إسماعيل قباري، الأنتروبولوجيا العامة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1998.
- رباح أحمد مهدي، محاضرات في الأنتروبولوجيا الطّبيعية، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم الأنتروبولوجيا التطبيقية، بغداد.
- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ط1، 2004
- إبراهيم ناصر، الأنتروبولوجيا الثقافية (علم الإنسان الثقافي)، دار جرير، عمان، ط1، 1985.
- Jean Copains, Introduction à l'Ethnologie et à l'Anthropologie, Nathan, Paris, 1996
- Philippe Descola, L'écologie des autres : l'anthropologie et la question de la nature, Ed : de la maison des sciences de l'homme, Paris, 2016.

المحاضرة رقم 7

الأنتروبولوجيا النفسية:

لا بدّ أن نشير في البداية إلى أنّ الأنتروبولوجيا النّفسية تتحدّد في العلاقة القائمة بين الثقافة والشخصية، وهي علاقة تسير في اتجاهين متكاملين: اتّجاه يأخذ أثر الثقافة في الشخصية، واتجاه يأخذ أثر الشخصية في الثقافة. ولقد ساعد ظهور الأنتروبولوجيا النّفسية علماء علم النفس في الوصول إلى دقائق الأمور التي تحكم تشكيل الشخصية، وبدورهم قام علماء الأنتروبولوجيا بدراسة الأنماط الأساسية للشخصية في المجتمعات الإنسانية المختلفة عن طريق أسس علم النفس وقواعده.

وقد ظهرت الدّراسات النّفسية في القارة العجوز أوروبا بتيارين رئيسيين، يضمّ كلّ واحد منهما عددا من الاتجاهات المتباينة: فالأوّل منهما يعتبر تطوّرا للنظرية الأنتروبولوجية ويطلق عليه تسمية: "علم النّفس الشعبي" مع الباحثين الألمان وعلى رأسهم "فيلهلم فوندت" في كتابه: "علم نفس الشعب" وفيه حلّل مختلف الأساطير والحكايات الأدبية عند أكثر الشعوب تباعدا، وانتهى إلى الكثير من المفاهيم الدّينية والأدبية أبدعها العقل البشري في ظروف خاصة، وفي حالة من الحلم والهلوسة المرضية، وطوّرها مواطنه "لايستنر" بما يعرف بعلم النّفس السلالي.

أمّا التيار الثاني فهو الذي يمثّله الطّبيب النفساني النمساوي الشهير "سيغموند فرويد" (Sigmund Freud) الذي اعتمد اعتمادا كبيرا على الأساطير والحكايات والمحرّمات والنوادر استكشافه للعقل الباطن، وقد استبدلت نظرية التحليل رمزية ظواهر الأجرام السماوية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر برمزية جنسية ويفسّر دورسون هذا الرأي قائلا: "فالحكايات الشعبية والأساطير الخرافية التي كانت قد فُسّرت من قبل بأنّها تصوّر معركة سماوية، والصّراع بين الشمس واللّيل، والعاصفة الرّعدية وسماء، أصبحت تفسّر الآن بأنّها تصف المعاناة الشهوانية للذّكر والأنثى. وأصبح البطل الشمسي السابق مثل "أخيلوس" و"تيسميون" و"بروسيوس" و"هرقليس" بأنّه ذكر الرّجل وأصبح الليل الذي يحتوي الأشياء بأنّه رحم المرأة". أمّا تلميذ "فرويد" الباحث الألماني "إريتش فروم" (Erich Fromm) فقام بفهرسة الرّموز التي وضعها "فرويد" من خلال مؤلّفه "اللّغة المنسية"، وهو كتاب أوّلي في تفسير الرموز والأحلام والأساطير والقصص الخرافية وكذا الحكايات من وجهة التحليل النفسي، ويشير إلى الرمزية العامة المتضمّنة في تلك النصوص الأسطورية. ويرى أيضا أنّ الدراما الأسطورية عبارة عن صراع بين السلطة الأبوية الاستبدادية لـ "كرون" والنظان الأمومي الذي تمثّله "أنتيجوني" يؤازرها "أديب" الذي يلقى حتفه في ساحة الآلهة

الأمومية. كما درس رفقة مواطنه (Bruno Bettelheim) الحكاية العجيبة الشهيرة "صاحبة القبعة الحمراء" أو في أحيان أخرى: "صاحبة الرداء الأحمر"، وفسّر "إيريتش فروم" الرداء الأحمر على أنّه دلالة للطمث تجنح عن طريق الفضيلة. فتقع فريسة غواية الذئب (الرّجل)، ويظهر الذئب حينما يملأ جوف الرحم بالفتاة وجدّتها، ويلقى عقابه حينما تملأ ذات الرداء الأحمر جوفه بالحصى، وهو رمز للعقم، فهذه قصّة فتاة تكره الرجل والجنس. ويشير أيضا إلى أشياء أخرى ترمز لعضو الذكورة مثل: العصا والأشجار والمظلّات والسكاكين والأقلام والمطارق والطّائرات ... وعلى نفس المنوال تمثّل الكهوف والزجاجات والصناديق والأبواب وعلب المجوهرات والحدائق والأزهار ... عضو الأنوثة، وتمثّل الأحلام أو الحكايات التي تدور حول الرقص والركوب والتسلّق والطيران الاستمتاع بالجنس وشهواته المعبّقة، ويرمز تساقط الشعر لعملية الحصى". ولقد عرض في كتابه "تفسير الأحلام" نظريته التي ترى بأنّ الأحلام إنّما هي تخفية رمزية عن الرّغبات والمخاوف الكامنة المكبوتة لجنسية الطّفولة.

ويجدر بنا أيضا أن نشير إلى جهود المدرسة الفنلندية في مجال دراسة الأساطير والقصص الشعبي أن تربط منهج التاريخي الجغرافي بنظرة نفسية إلى مادة الدّراسة، أي توظيف البعد السيكولوجي إلى البعدين: التاريخي والجغرافي للعنصر الأدبي الشعبي المدروس، فأصبحت تهتمّ في دراستها للتناقل الشفهي للعمل الأدبي بالعوامل النّفسية التي تؤثّر على خطّ هذا التناقل وسرعته وفعاليته، وحاول أصحاب هذه المدرسة وعرى رأسهم "فريدريتش رانكه" بأن يخرج نصوص الأساطير والمرويات من غموض التفسيرات الميثولوجية.

أنتروبولوجيا التحليل النّفسي:

استعان –إذن- "فرويد" بمجموعة من الأساطير والحكايات لاستكشافه للعقل الباطن، وجعل من الأحلام تخفية رمزية عن الرّعبات والمخاوف الكامنة المكبوتة لجنسية الطّفولة، ووجد في أسطورة "أوديب" مثلا للنّص الأسطوري الذي يزيح السّتار عن الرّغبات والدّوافع الغامضة المكبوتة عند الأطفال الذين صاروا بالغين. وكانت دراسته للجنس عند الأطفال تستهدف إلى إثبات أنّ خبرات الطّفولة المبكّرة تلعب دورا حاسما في تشكيل شخصية الفرد بعد البلوغ.

كما حاول تلاميذه الآخرون متابعة فكّ هذه الرّموز الجنسية التي يعتقد أنّها متضمّنة في الأعمال الأدبية الشعبية والمعتقدات والطّقوس والعادات والتقاليد والألعاب الشعبية... ومن أمثال هؤلاء نجد "جيزا روهايم" (Géza Rohiem) الذي اهتمّ بالتراث الشعبي المجري وبعدها حاول دراسة مجتمعات عالمية مثل:

سكان أستراليا الأصليين. كما حاول تفسير وتحليل عددا كبيرا من الخرافات والأساطير في كتابه: "بوابة الحلم". ويرى أنّ الأحلام إرهاصات أساطير وقصص خرافية وأنّها ترتبط بخيلات لا شعورية. وهناك أحلام تراود الإنسان دوما، مثل: أن يرى الشخص الحالم أنّه يسقط في بحيرة أو حفرة أو بئر عميق، وذلك يمثّل الذّكر أو القضيب أثناء دخوله المهبل، فيكون جسد الحالم رحما، مرموزا له بمحيط أو زهرة لوتس، وهذا هو مصدر خلق الأساطير مثل أسطورة غواص البحر، فكلّما كان الغوص أعمق كان القضيب أكبر وأعمق إذ إنّ الغوص في الأحلام يعبّر عن الانتصاب. وحينما يرى الحالم مثل هذا الحلم ذات مرّة وحكاه ورواه للآخرين كانوا قد مرّوا بنفس التجربة في أحلام مماثلة ومن خلال التكرار نمت الأسطورة وتطوّرت. أمّا "كارل غوستاف يونغ" (Carl Gustav Yong) فقد خالف أستاذه "فرويد"، إذ إنّه لم يعتمد على الغرائز، وتصوّر أن هناك شخصيات ومواقف وأهمية تمثّل الجانب المظلم من الشخصية في الأساطير والحكايات كما هو الحال في الأحلام والخيال. وتحدّث عن الشعور واللاشعور الجامعين، ولكن نبدأ بالرّمز ومدى توظيفه في الأسطورة التي تلعب دورا حيويا في حياة الجماعة، وإذا أدركنا أنّ هذا الرّمز الذي ظهر في المادة الأثنولوجية وفي التعبير التصويري الذي خلّفته العصور وما زال يعيش إلى أيامنا هذه عبر الحكايات الخرافية المتداولة. ولنحدّد مفهوم النّمط كما جاء به "كارل يونغ" على أنّه: "تلك القوى المتدفّقة في اللاشعور التي تدفع الإنسان نحو الحركة لخوض التجارب حتى يصل إلى الكلّ الكامل، أو بتعبير آخر حتى يصل إلى حالة الانسجام مع الوجود كلّه، وهو يعيش جنبا على جنب مع قوّة لا شعورية أخرى هي قوّة الغريزة بل ويصاحبها، وكأنّه إنسان خيّر بصحبة إنسان شرير، يحاول أن ينفلت من تأثيره وينتصر عليه. وحتى يصل الإنسان إلى مرحلة الانسجام التّام مع الوجود الكلي، فإنّه يمرّ في رحلة نفسية طويلة يصوّرها أروع تصوير". ولكي نفصّل أكثر في النمط النموذجي نقول إنّه: المغزى الذي يقبله الشعور، فإذا اشتغل هذا النّمط اشتغل معه الشعور الذي سيبدأ بتمثّل محتواه. وأمّا بنية هذا النّمط فهي المظهر المعقّد للسّلوك النّفسي، وهو يضمّ ديناميته ورموزه ومغزاه، فمحور هذه العناصر ووحدتها غير المدركة يكون بنية النّمط الأصلي.

كما تعمل دينامية النّمط الأصل في اللاشعور مستقلّة عن تجارب الأفراد ولكنّها تتّفق تماما مع سلوكهم، فالفرد في مجتمعه يكون منقادا لها، كما أنّ شخصيته تتحدّد بتأثيرها، هذا التأثير الذي يتجاوز الغرائز اللاشعورية ويظهر بوصفه إرادة لا شعورية تؤثّر في مزاج الشخصية وميولها وانضباطها وتفكيرها وهدفها ورغباتها وكذا الطريقة الموجّهة لاتجاهها الرّوحي.

دون أن نهمل أيضا أعمال "أرنست جونز" (Ernest Jones) وهو عضو من أعضاء جمعية الفولكلور الانجليزية، ودعا إلى التعاون المثمر والمتبادل بين التحليل النّفسي والفولكلور بما فيه الأنتروبولوجيا. ودرس مستويات التناظر بين رواسب الحياة المتخلفة من ماضي العرق البشري والرواسب المتخلفة من ماضي الفرد. وقدّم أمثلة كثيرة من خلال الدّراسات التي قام بها مثل دراسته بعنوان: "الدّلالة الرّمزية للملح في الفولكلور والخرافات"، وفيها ركّز على البعد النّفسي الذي يثيره الملح في نظر العقلية الشعبية، خاصة ما يتعلّق بتلك الطّقوس التي تُقام في سبيل طرد الأرواح الشريرة والأشرار والشياطين، ويقرّ بطبيعة الشيطان الرّمزية التي تبدو كعضو الذكورة واضحة في تطابقه المتكرّر مع الثعبان، كما أنّ هذا الشيطان ما هو إلا صورة الأب التي تجسّد رغبتين مكبوتتين وهما: رغبة الابن في محاكاة الأب ورغبته في تحديه.

وعند هذا الحدّ استقرّ البعد النفسي في دراسة عناصر التراث الشعبي، وكان ظهوره الأوّل على إثر الاتصال بالأنتروبولوجيا الثقافية، حيث سعى إلى اقتناص العناصر المتشابهة –خاصة في ظواهر المعتقدات الشعبية- بين مختلف ثقافات العالم، مثلما فعل "جيمس فرايزر" في كتبه الضّخم "الغصن الذّهبي" حينما أودع الآلاف من العادات والطّقوس واستنتج دوافعها النّفسية، ويمكن لنا أن نمثّل بما قدّمه عن قبيلة "الآرانتا (Aranta) حينما تقوم فصيلة من فصائلها التي تسمى باسم دودة معيّنة ببعض الطقوس التي تهدف إلى الإكثار من هذا النّوع من الديدان التي يتغذّى عليها أفراد القبيلة، وتتلخّص إحدى هذه الطّقوس في تمثيل عملية خروج الحشرة المكتملة النمو من اليفعة، ويقام من فروع الشجرة هيكل طويل ضيّق، بحيث يشبه غلاف بقعة هذه الشجرة، ويقبع فيه عدد من النّاس وهم يردّدون الأغاني التي تدور حول المراحل المختلفة التي تمرّ عبرها الدودة في نموّها، ثم يحاولون أن يشقّوا طريقهم من هذا الغلاف مثلما تفعل اليفعة تماما ومن المفروض أن مثل هذه الطقوس تساعد على توالد هذه الديدان وتكاثرها.

قائمة المصادروالمراجع:

1. جاك لومبار، مدخل إلى الأثنولوجيا، ترجمة: حسين قبيسي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1997.
2. إيجنز بريتشارد، الأناسة المجتمعيّة، تر: حسن قبيسي، دار الحداثة للطّباعة والنّشر، ط1، بيروت، 1986.
3. ريتشارد دورسون، نظريات الفولكلور المعاصرة، ترجمة: محمّد الجوهري وحسن الشامي، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، ط3، 1993.
4. فروم إيريتش، كينونة الإنسان، ترجمة: محمّد حبيب، دار الحوار للنّشر، اللاذقية، ط1، 2013.
5. فروم إيريتش، اللغة المنسية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، دار الحوار للنّشر، اللاذقية، ط1، 2014.

6. جيمس فرايزر، الغصن الذهبي (دراسة في السّحر والدّين)، تر: نايف الخوص، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2014
7. نبيلة إبراهيم، الدّراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 1994.
8. Bruno Bettelheim, psychanalyse des contes de fées, Ed : Pocket, Paris, 1996.

المحاضرة رقم 8

الأنتروبولوجيا الثقافية:

1. مقدمة (في تعريف الثقافة وخصائصها)

يعيش الإنسان في أبعاد متنوّعة، يتحرّك في الفضاء حيث البيئة الطّبيعية التي تؤثّر عليه بشكل دائم، ويقوم بأنشطته داخل جماعة يكون عضوا فيها رفقة أعضائها الآخرين ويتعاون معهم في صيانتها واستمراريتها. ويتلقّى الثقافة على إثر الاحتكاك، فهي مكتسبة وتسمح للإنسان أن يتأقلم مع محيطه الطّبيعي، وهي متنوّعة وتظهر في المؤسّسات وأشكال التفكير والأشياء المادية. ويعتبر مصطلح الثقافة شائع الاستخدام، وارتبط ظهوره مع تطوّر علوم الإنسان، ولقد حاول الباحثان الأمريكيان "ألفريد كريبر" (Alfred Krober) و"كلايد كلوكون" (Clyde Kluckohn) ضمن جهد توضيحيٍّ، تقديم تعريفات شاملة لمصطلح الثقافة، واستخلصا أنّه ثمة نوعان من الثّقافة، فأمّا أبرزهما هي الموروث من فلسفة الأنوار، ولهذا تُطلق هذه التسمية على الإرث الأدبي المتراكم منذ القدم. ولعلّ أبرز التعريفات التي تناولت الثقافة ما جاء به العالم الفذ "إدوارد تايلور" (Edouard Taylor) الذي يرى بأنّ الثقافة كلّ مركّب (c'est un tout complexe) يشتمل على المعرفة والعقيدة والدّين والفنّ والأخلاق والعادات والتقاليد والقانون والأعراف والطّقوس ... وأي قدرات أخرى يكتسبها الإنسان وهو عضو في المجتمع. وهو تعريف جامع ومانع لمصطلح الثقافة. ومن خلال تعريف "تايلور" تبدو لنا الثّقافة متعلّقة بمجموع الحقائق الاجتماعية التي يمكن أن تلاحظ في مكان وزمان محدّدين كما أنّها ترتبط بجماعات عرقية داخل المجتمع الواحد، لهذا فإنّ الثقافة في علاقتها بالإنسان أو العكس وتكون متمحورة في اتجاهين هما:

- الإنسان يكتسب الثقافة بوصفه عضوا داخل المجتمع.
- الثقافة ليست مادية فحسب بل هي أيضا معنوية.

وناقض التعريف الذي تقدّم به "تايلور" من خلال إدراجه لكلمة: (المكتسبة) تلك النظرة الشائعة في التوصيات العرقية التي كانت تستخرج طباع وأعراف الشعوب الوحشية من تركيبهم الفيزيقي ومن تأثير

المناخ عليهم أو من بنية دماغهم المفترض أنّه أكثر بساطة. أمّا "فرنس بواس" (Franz Boas) الباحث المتخصّص في ثقافة هنود أمريكا، فقد رفض فكرة وضع الثقافات على سلم واحد من الحضارة، ومقارنتها بعضها البعض، فيجب النّظر إلى كلّ مجتمع لذاته ضمن مصيره البحت وبالتالي لا يمكن لثقافته أن تتكوّن إلاّ من خصوصيته.

ونجد تعريفات أخرى مثل تعريف "روبيرت بيرستيد" الذي يرى بأنّ الثقافة عبارة عن كلّ مركّب يتألّف من كل ما نفكّر فيه كأعضاء في مجتمع، فالثقافة بهذا المفهوم تتكوّن من كلّ ما يجب على الفرد أن يفعله ويدركه ويعتقده، إذ يعمل وفق ما يمليه عليه المجتمع. فهي ليست ظاهرة مادية فحسب أي أنّها لا تتكوّن من الأشياء أو النّاس أو السلوك أو الانفعالات، وإنّما هي تنظيم لهذه الأشياء في شخصية الإنسان. وتوالت التعريفات الخاصة بالثقافة ونكاد نعثر عليها عند جلّ العلماء كون علوم الإنسان جميعها توظّفها والتي تبدو أنّها بقدر عدد المهتمّين بها، وسنحاول تقديم تعريف نراه أقلّ التعريفات نقصا لأنّه أوسعها، وهو الذي جاء في إعلان موسكو عام 1982 والذي ينصّ على أنّ الثقافة –بمعناها الواسع- تمثّل جميع السّمات الرّوحية والمادية والعاطفية التي تميّز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة ... كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان والنّظم والقيم والأعراف والعادات والتقاليد والطّقوس والسحر والدّين وغيرها ...

وتحتمل الثقافة مجموعة من الخصائص تجعلها تنفرد بها ويمكن حصرها على النحو الآتي:

- تعتبر الثقافة خاصية إنسانية، أي أنّها من صنع الإنسان وحده دون الكائنات الحيّة الأخرى.
- الثقافة مكتسبة، ويتمّ اكتسابها بطريقة مقصودة أو غير مقصودة وتتمّ هذه العملية أثناء الاحتكاك والتفاعل مع الأفراد المحيطين داخل الجماعة.
- الثقافة متطوّرة، أي أنّها تتطوّر دوما وترتقي نحو الأفضل.
- تمتاز الثقافة بقابليتها للانتشار والانتقال، وذلك عن طريق التعليم واللّغة ووسائل الاتصال، كما أنّها تنتقل من شخص إلى آخر ومن جيل إلى آخر.
- تمتاز الثقافة بالتغيّر السريع وباستمرار، خاصة في الآونة الأخيرة، والتي شهدت تطوّرا تكنولوجيا مذهلا وهو مرشّح للازدياد والنمو.
- تحدّد الثقافة سلوك أسلوب الإنسان وبذلك يصبح لديها القدرة على التنبّؤ بما يمكن أن يقوم به الإنسان ويقدم عليه.

- إنّ الثقافة تكاملية، إذ لديها القدرة على إشباع حاجات الإنسان وتترك راحة في النّفس لتميّزها بأنّها تجمع بين العناصر المعنوية والمادية.
- تعتبر الثقافة بأنّها تراكميّة، لأنّها ذات طابع تراكميّ تاريخيّ، فهي تنتقل من جيل إلى آخر وهذا يؤدّي إلى ظهور أنساق جديدة ومتطوّرة للثقافة.

فالثقافة –إذن- هي المركب الشامل من التفاعل الاجتماعي، لهذا فهي تحتوي على أفكار واتجاهات مختلفة يندمج فيها الإنسان وفقا لاتصاله بالواقع الاجتماعي، ومن ثمّ تحقيق تواصله مع فئات المجتمع وما أضافوه بأنفسهم إلى هذا الكل الثقافيّ، فالثقافيُّ في حياة الإنسان هو ميراثٌ اجتماعيٌّ، فالعادات إنّما هي استمرار ذلك الجانب الثقافي المرهون بحفاظ الإنسان عليه وحفظه في النظرة الإنسانية.

2. الأنتروبولوجيا الثقافية:

إنّ الموضوع الأساسي في دراسات الأنتروبولوجيا الثقافية هو الثقافة، وارتبط نشأة هذا الفرع بجهود "تايلور" الذي –وكما رأيناه أعلاه- أوّل من قدّم مفهوما مكتملا لمصطلح الثقافة. ومن ثمّ ربطه "الباحث الانجليزي الآخر "جيمس فرايزر" (James Frazer) بالأنتروبولوجيا وأصبح هنالك مصطلح أطلق عليه: الأنتروبولوجيا الثقافية. وتتناول هذه الدّراسة طريقة معيشة جماعة من الجماعات البشرية البدائية منها والمتخلّفة وحتّى المتقدّمة والمعاصرة. وترمي إلى فهم طبيعة ظاهرة الثقافة وتحديد عناصرها، فهي تبحث في التغيّر الثقافي وعمليات الاقتراض والامتزاج والصّراع بين الثقافات وتحديد نتائج تلك الاتّصالات فيما نسمّيه بالتثاقف. (Acculturation) كما تدرس أيضا خصائص الأشكال المتشابهة من الثقافات أي الأنماط الثقافية التي تحدث بصورة مستقلّة في الأماكن والعصور المختلفة. وتتكوّن دراسات الأنتروبولوجيا الثقافية من جانبين: فالأوّل منهما هو الدراسة المتزامنة أي دراسة المجتمعات والثقافات في نقطة زمنية من تاريخها، أما الجانب الآخر فهو الدراسة المتعاقبة أي دراسة المجتمعات والثقافات عبر التاريخ. وتعرّف الأنتروبولوجيا الثقافية على أنّها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع له ثقافة معيّنة. وعلى ذلك الإنسان أن يمارس سلوكا يتوافق مع سلوك الأفراد في المجتمع، يتحلّى بقيمه وعاداته ويدين بنظامه ويتحدّث بلغة قومه.

وهي بذلك العلم الذي يهتمّ بدراسة الثقافة الإنسانية، ويعني بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكاته النابعة من ثقافته. وهي تدرس الشعوب القديمة والمعاصرة منها. وتهدف إلى فهم الظاهرة الثقافية وتحديد

عناصرها، كما تهدف إلى دراسة عمليات التغيير الثقافي والتمازج الثقافي وتحديد الخصائص المتشابهة بين الثقافات، وتفسّر بذلك المراحل التطوّرية لثقافة معيّنة في مجتمع معيّن.

وتتضمّن الأنتروبولوجيا الثقافية العناصر البارزة الآتية:

1. تهتمّ الأنتروبولوجيا الثقافية بالتراث المادي واللامادي والحياة داخل نطاق المجتمع.
2. يتمّ بواسطتها الخوض في جوهر الثقافات المختلفة ومعرفة كيف تحيا الأمم.
3. التعرّف على البنية الاجتماعية والآلية السيكولوجية التي توجّه سلوك الفرد.

ولكي نفصّل ونشير أنّه ومن هذا المنطق تهتمّ الأنتروبولوجيا الثقافية بالتّراث المادي واللامادي والحياة داخل نطاق المجتمع، ويمكن بواسطتها الخوض في جوهر الثقافات المختلفة ومعرفة كيف تحيا الأمم والمجتمعات. وبالتالي يمكن أن تخرج بنتائج معيّنة تفسّر وتجيب تساؤلات كان يسألها صاحبها قبل الشروع في أي عمل خاصة ما يتعلّق بتلك الرّحلات الأثنوغرافية والأثنولوجية والأنتروبولوجية التي كان يقوم بها الرحّالة الغربيون إلى أمريكا وأفريقيا وآسيا وأستراليا. كما أنّ دراسة الوسط الثقافي تكشف عن الآلية السيكولوجية التي توجّه سلوك الفرد، وتصرف النزعة العدوانية في مجالات تنفيس مهذّب. ويمكن لنا أن نمثّل بظاهرة التحريم في المجتمعات البدائية: مثل تحريم التعامل مع الغرباء، إذ وقبل أن يسمح للغرباء بالدخول إلى المنطقة وقبل اختلاطهم بالسكان المحلّيين، لا بدّ من إجراء طقوس معيّنة من قبل أهل البلد بهدف نزع السّلاح السحري من الغرباء والقوى الشريرة المتواجدة فيهم، ومن أمثلة ذلك أنّ "جستين الثاني" إمبراطور الشرق أرسل السفراء لاختتام عملية السلام مع الأتراك، تمّ استقبالهم من قبل الشامان الذين أخضعوهم لطقوس التطهير بهدف التخلّص من التأثيرات المؤذية. في بادئ الأمر وضعوا أمتعة السفراء في مكان مفتوح وراء السحرة يحرقون أغصانا من البخور حولها في حين كان يقرع آخرون الجرس ويضربون على الدف وهم ينادون مع نوبات سُعْر جنونية ليبددوا قوى الشرّ.

وفي بقاع أخرى وبالتحديد بجزيرة نانوميا بجنوب أفريقيا مُنع الغرباء الآتون مع السفن الاتصال بالأهالي قبل أخذهم جميعا أو بعضهم كممثلين عنهم إلى معابد الجزيرة حيث كانوا يقدّمون الصلوات للإله الأعظم كي يحوّل عنهم غدر هؤلاء الغرباء، وكانت عطايا الطّعام تقدّم على المذابح مع الأغاني والرقصات على شرف الإله. ويُروى أنّ مسافرا من أوروبا يدعى "كريفو" توجّه إلى جنوب أفريقيا ودخل إحدى القرى التي يسكنها هنود أبالاي وبعد بضع دقائق من وصوله أتى به بعض هنود القرية ووضعوه في ساحتها العمومية وأحضروا عددا من نملات سود كبيرة من ذوات اللّسعة المؤلمة وهي مربوطة على أوراق

النخيل ثم بدأ أهالي القرية يلسعونه بتلك النملات واحدا تلوى الآخر، وفي اعتقادهم أنّ الأرواح الشريرة التي تسكن ذاك الغريب ستنصرف عنه لا محالة. وممارسات مثل هذه كثيرة التداول في المجتمعات البدائية، وما ممارستها سوى ضمانة وحفاظا على الأمن والاستقرار السائدين في تلك المجتمعات.

ومن ثم، تهدف الأنتروبولوجيا الثقافية إلى تصنيف المعتقدات والديانات حسب الأولوية والأهمية العددية والجغرافية، وتجميعها في وثائق أو نصوص أو جذاذات وجداول حسب عدد المنتمين إليها، ونسبة الانتماء ثم تبيان مكانة كل ديانة أو عقيدة على حدة، واستجلاء نموها وتطورها ومدى انتشارها وتحديد مرتكزاتها النظرية، واستكشاف آليات ممارستها، واستعراض مختلف المواقف الرافضة أو المؤيدة أو المعارضة لتلك الديانات أو المعتقدات. دون أن ننسى دراسة الظروف الاجتماعية التي أفرزت تلك الديانات والعقائد، واستجلاء مختلف الصعوبات والعراقيل التي تواجهها كلّ ديانة أو عقيدة لإثبات نفسها في تربة جغرافية معينة، أو منطقة ثقافية محددة .إذاً، يقصد بالأنتروبولوجيا الثقافية دراسة الثقافة الإنسانية، وما خلّفه الإنسان من معتقدات طوطمية وطقوس تعبدية وشعائر حركية وممارسات دينية وسلوكيات روحانية وتجارب صوفية وأعمال سحرية. بمعنى دراسة الثقافة الدّينية عند الفرد أو الإنسان داخل المجتمع الكلي. علاوة على الاهتمام بدراسة الظواهر ذات الطبيعة الدينية أو المقدسة، أو العناية بالعلاقة التي تجمع الإنسان بإلهه من جهة، أو بمجموعة من المعبودات التي تجسد الذات الإلهية حسب معتقدات الإنسان العابد من جهة أخرى. وقد يقصد بها أيضا دراسة مختلف المعتقدات والأفكار السحرية والدينية التي يؤمن بها الإنسان، وما له عالقة بالوثنية، والكفر، الإرهاب، والفكر الأصولي...

وتنطلق الأنتروبولوجيا الثقافية من أن الدين جزء من المجتمع، أو هو مؤسسة كباقي المؤسسات الثقافية والاجتماعية الأخرى، لها أدوارها ووظائفها داخل النسق المجتمعي الكلي. بل يمكن القول بأن الدين هو الثقافة والمجتمع على حد سواء، مادام يعكس مختلف العالقات الاجتماعية التي تجمع بين الأفراد، مثل: الالتحام، والمساواة، والتضامن، والتعاون، والإحساس المشترك...، ويعني هذا أن الدين هو الثقافة، والثقافة هي الدين نفسه .وعليه، فالأنتروبولوجيا الثقافية هي دراسة المعتقدات والممارسات والطقوس وأشكال التنظيم الديني، إما وفق المنهجية الكمية، وإما وفق المنهجية الكيفية.

3. أهداف الأنتروبولوجيا الثقافية:

تهدف الأنتروبولوجيا الثقافية إلى تحقيق مجموعة من الأهداف والتي لخصنا مضمونها كما يأتي:

- تهدف إلى دراسة الظواهر الثقافية وتحديد جميع أجزائها.
- تهدف إلى فهم أنماط التغيير الثقافي والاختلاط الثقافي.
- تحديد الصفات المتشابهة بين الثقافات.
- ومناقشة الخطوات التطورية لثقافة محددة في مجتمع محدد.

4. فروع الأنتروبولوجيا الثقافية:

وتتفرّع من الأنتروبولوجيا الثقافية لإلى ثلاثة أقسام، أوّلها:

1.4- علم اللّغويات:

تعتبر اللغة وسيلة من وسائل الاتّصال والتواصل، وهي من الصّفات التي يتميّز بها الكائن الإنساني عن غيره من الكائنات الحيّة، وهي الطريقة المثلى للتخاطب والحديث والتحاور والتفاهم بين أبناء المجتمع الواحد أو بين جماعات بشرية مختلفة الأجناس عن طريق أشكال كلامية أو رموز صوتية، علاوة على أنّها وسيلة لنقل التراث الثقافي أو الحضاري، إذ يمكن استخدام سائر اللغات في سبيل تدوين التراث.

ويسمّى العلم الذي يدرس اللّغة: علم اللغويات وأحيانا أخرى بعلوم اللسان أو اللسانيات، وهو فرع معرفي يبحث في تركيب اللّغات الإنسانية المنقرضة والحيّة ولاسيما المكتوبة منها في السّجلات التّاريخية فحسب كاللاتينية أو اليونانية القديمة، واللغات الحيّة المستخدمة حاليا عبر أصقاع العالم ويمكن أن نمثّل: باللّغة العربية والفرنسية والانجليزية والإسبانية والبرتغالية والروسية وغيرها ... ويهتمّ دراسو اللغات بالرّموز اللّغوية المستعملة إلى جانب العلاقة القائمة بين لغة شعب ما والجوانب الأخرى من ثقافته باعتبار اللّغة وعاءً ناقلا للثقافة.

ويدرس علماء الأنتروبولوجيا اللّغة في سياقها الاجتماعي والثقافي في المكان والزّمان، ويقوم بعضهم باستنتاجات تتعلّق بالمقوّمات العامة وربطها بالتمثلات الموجودة في ذهن الإنسان. ويمكن أيضا المقارنة بين اللغات القديمة بالمعاصرة واستجلاء عناصر التشابه والاختلاف. كما يهدف إلى تحديد أصول اللّغات الإنسانية، ويختصّ بالجانب التاريخي والمقارن، إذ يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات القديمة منها والمعاصرة، مع أنه من الصّعب التنقيب في القديمة لأنها اندثرت أو أنها تكاد تكون كذلك. ويعتبر فرع علم اللغات الأكثر استقلالا وانعزالا عن الفروع الأنتروبولوجية الأخرى، ولذلك يولي "كلود ليفي ستروس"

(Claude Levi Strauss) أهمية بالغة للغة ويعتبرها أحد الأركان الأساسية في علم الإنسان. وهي الظاهرة الأساسية التي يمكن عن طريقها فهم كلّ صور الحياة الاجتماعية.

2.3- علم الآثار القديمة، الحفريات): (Archéologie)

نعني بعلم الآثار جمع بقايا الآثار والمخلّفات البشرية وتحليلها، بحيث يستدلّ منها على التسلسل التّاريخي للأجناس البشرية في تلك الفترة التي لم تكن فيها كتابة وليس ثمة وثائق مدوّنة (مكتوبة) عنها. ويستخدم علماء الآثار أساليب دقيقة لحفر طبقات الأرض التي يتوقّع وجود بقايا حضارية فيها. كما توصّلوا إلى مناهج دقيقة لفحص تلك البقايا وتحديد مواقعها وحتّى تحديد أعمارها وفتراتها الزمنية. ويستخدم علماء الأنتروبولوجيا بقايا كمعطيات رئيسية لاستخدام المعرفة العلمية والنظرية، وبالتالي التنقيب عن ماضي الإنسان ومعرفة مدى ازدهار الحضارات السالفة وانقراضها وإدراك العوامل المسؤولة عن هذه الظاهرات التاريخية.

ويبحث هذا الفرع من الأنتروبولوجيا الثقافية في الأصول الأولى للثقافات الإنسانية ولاسيما الثقافات المنقرضة، وعلى الرّغم من أن الهدف الأوّل من هذه الأبحاث هو الحصول على معلومات عن الشعوب القديمة، إلا أن هدفها الأسمى هو تفهّم العمليات المتّصلة بنمو الثقافات أو الحضارات وازدهارها أو اندثارها ويمكن عن طريق سائر الآثار (مثل الكتابة) معرفة تاريخ الإنسان. فهدف علماء الآثار يكمن في اكتشاف ذلك الجزء من التاريخ الماضي الذي لا تتعرّض له السجّلات المكتوبة.

3.4. علم الثقافات المقارن:

نسميه أيضا بعلم الأثنولوجيا أو علم النياسة وهو من أقرب العلوم إلى الأنتروبولوجيا إذ يمثّل المرحلة الثّانية من الجمع والتوليف ويقوم فيها الباحث بهاتين العمليتين وفقا للاتجاه الجغرافي، كما أنّها طريقة من طرائق البحث بقدر ما هي فرع من فروع المعرفة، فهي العلم الّذي يختّص بالجماعات أو المجتمعات الصّغيرة الأحجام. وعلم يعتمد منهجا وتقنيات قائمة على المشافهة والمعاينة والمقابلة، بل حتّى على السّيرة الذّاتية أكثر ممّا هي قائمة على الإحصائيات والتحقيقات المرهقة الّتي تعتمد استثمار الاستبانات على نطاق واسع. وتعتمد الأثنولوجيا في تفسير توزيع الشعوب في الماضي والحاضر نتيجة اختلاطها وانتشار الثقافات، وعن مصادرها الأولى وأصولها، ويدخل في ذلك دراسة أصول الثقافات والمناطق الثقافية وهجرة الثقافات وانتشارها والخصائص النوعية لكلّ منها. وهو علم يبحث في السلالات القديمة وأصولها وأنماط حياتها، كما يبحث في المجتمعات الحديثة والمعاصرة.

ومن مميّزات الأثنولوجيا أنّها تعتمد عمليتي التحليل والمقارنة، فتكون عملية التحليل في دراسة ثقافة واحدة، بينما تكون عملية المقارنة في دراسة ثقافتين أو أكثر. وصفوة القول إنّ الأثنولوجيا تدرس خصائص الشعوب اللّغوية والثقافية والسّلالية وتفسّر توزّعها الجغرافي نتيجة للهجرات واتصال الشعوب بعضها ببعض، وكذلك تدرس الحياة أو الجوانب المادية من الحضارة، وأشكال الحياة الاقتصادية وتنظيم المجتمع وطابع الأسرة والتنظيم العشائري والقبلي، بالإضافة غلى الحكم والنظم القانونية والأعراف والعقائد الدّينية والفنون وغيرها من الأنشطة الحضارية التي يقوم بها الإنسان.

قائمة المصادر والمراجع:

- نيكولا جورنه، بين الكوني والخصوصي (البحث عن البدايات-طبيعة الثقافة-تشييد الهويات)، ترجمة: إياس حسن، دار الفرقد للطّباعة والنّشر والتوزيع، دمشق، ط2، 2014
- إبراهيم ناصر، الأنتروبولوجيا الثقافية –علم الإنسان الثقافي-، ط1، عمّان، 1985.
- أحمد أبو زيد، محاضرات في الأنتروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، 1997
- كلود لفي ستراوس، الإناسة البنيانية، تر: حسن قبيسي، المركز الثّقافي العربي، ط1، بيروت، 1995
- جاك لومبار، مدخل إلى الأثنولوجيا، ترجمة: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدّار البيضاء، 1997
- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، إتحاد كتّاب العرب، ط1، دمشق، 2004
- جميل حمداوي، الأنتروبولوجيا الثقافية –أنتروبولوجيا الطّقوس والشعائر الدّينية، دار الريف للطّبع والنشر الإلكتروني، الناطور، المغرب، ط1، 2020.
- Melville Herskovits, Les bases de l’anthropologie culturelle, Ed : Maspero, Paris, 1967.

المحاضرة رقم 9

الأثنوغر افيا والأثنولوجيا والأنتروبولوجيا

1. الأثنوغر افيا (الناسوث)

الأثنوغرافيا علم ظهر في أواخر القرن التّاسع عشر، وبداية القرن العشرين، ويهتمّ بتصنيف وترتيب اللّغات البشرية. ويعتبر الناسوث الجزء الوصفي من النياسة، وتتكوّن من كلمتين: "إثنوس" (Ethnos) وتعني: قوم ناس، و"غرافيا" (Graphein) وتعني: وصف. ويتّخذ النّاسوث في غالب الأحيان صبغة الأدروسة (المونوغرافيا)، ويرى "راد كليف براون" (Radcliffe Brown): أنّ الناسوث معاينة الظاهرات الثقافية ووصفها عند الشعوب خاصة منها المتخلفة، ويرى "كلود لفي ستراوس" (Claude Levi Strauss) أنّ الأثنوغرافيا والأثنولوجيا لحظتان مختلفتان، إذ تسبق لحظة الأثنوغرافيا لحظة الإثنولوجيا التي تكون بعدية. والسبب في ذلك أن الأثنوغرافيا هي أول خطوة عملية تقوم على جمع المعلومات والبيانات والمعطيات وتوصيفها، بينما تتدخل الإثنولوجيا لتحليلها وتفسيرها وبناء النظريات في ضوء الاكتشافات الحقلية التطبيقية، وبهذا تكون الإثنولوجيا نظرية في حين تكون الأثنوغرافيا تطبيقية وعملية وحقلية. ولا يمكن لنا القيام بأيّ عمل دون الاستعانة بالنّظريات والفرضيات كون الجامع أو الباحث الميداني يعمد إلى القيام بمعاينات قصد الإجابة على مجموعة من التساؤلات. تفيد هذه التعريفات والآراء التي قدّمها هؤلاء الباحثون المختصون إلى أن الناسوث/الأثنوغرافيا مرحلة وصف ومعاينة للحياة الثقافية لشعب من الشعوب، وهي بمثابة المرحلة الأولى من الدّراسة الميدانية أين يتمّ جمع المعطيات.

اهتمت أوروبا بعلم الأثنوغرافيا منذ ظهوره، وإن اختلفت قواعده من بلد إلى آخر إلا أنّ الكلّ يتّفق على أنّه دراسة وصفية لطريقة وأسلوب الحياة لشعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات:

أ/ ألمانيا:

ظهر مصطلح الأثنوغرافيا لأوّل مرة بألمانيا على يدّ الباحث "جوهان فريدريك شوبرلين" (Johan Friedrich Schoppelin) وأصول المصطلح الأولى تعود إلى مواطنه "جيرارد فريدريك مولر" (Gerhard Friedrich Muller) الذي يُعتبر أبو الأثنوغرافيا، عندما قام بأوّل عمل إثنوغرافي يعتمد على وصف عادات وتقاليد وأعراف وديانات شعوب سيبيريا بين 1733-1743. وأدرج "جوهان فريدريك شوبرلين" مصطلح الأثنوغرافيا في دراسة له عام 1967، وكان هذا المؤرّخ يقوم بأعمال ميدانية وحقلية بألمانيا وما جاورها من

البلدان والشعوب، وكان المصطلح في بدايته يشير إلى باقة من طبعات الكتب والدراسات المتنوّعة والمختلفة ليتحوّل إلى علم يدرس الشعوب ويصف بنيتها الاجتماعية والثقافية والاعتقادية. وتتميّز البحوث الأثنوغرافيا عن المناهج البحثية الأخرى، ولاسيما بمعايشة المجتمع المدروس والاحتكاك به على جميع النواحي والمستويات والأصعدة، وتتحقّق الخاصة الأثنوغرافية بإجراء أبحاث ميدانية وحقلية لجميع البيانات والمعطيات والمعلومات بغية تدوينها وتوصيفها وإجراء مقابلات وتحليل وثائق وسير ذاتية، وهو نفسه الذي انتهجته فرنسا، ولو أنّ هذه الأخيرة اعتمدت عليه من أجل أهداف استعمارية أكثر منها علمية ومعرفية، ولقد قام الباحث الألماني الأثنوغرافي والمختصّ في الدراسات الإفريقية "ليو فروبينيوس" (Leo Frobenius) (برلين 1873- فرانك فورت 1938) ببحوث طويلة بالجزائر أهمّها كتاب يضمّ أربعة أجزاء كاملة من حكايات ومرويات أسطورية من منطقة القبائل. ويعتبر من أكبر الباحثين والمختصّين الأوروبيين الذين درسوا القارة الأفريقية، وكرّس جلّ بحوثه عنها. باشر منذ عام 1884 في إيداع ملفات ضخمة في بطاقات توزيعية، ونزل إلى الميدان في أوّل الرحلات الميدانية سنة 1904، وحاول إخضاع حدسه لاختبار فعل الملاحظة. إنّ المدوّنة وجميع الوثائق التي جمعها من الميدان والتي بلغ عددها 250000 شكّلت الدّعامة الأساسية لمعهد الدّراسات الأفريقية الذي أنشأه عام 1922، والذي أصبح يعرف عالميا باسم: معهد ليو فروبينيوس.

ب/ فرنسا:

تقوم الدّراسات الأثنوغرافية بفرنسا على دراسة القبائل ووصفها خاصة منها مستعمراتها بإفريقيا وآسيا وأمريكا جزر المحيط، حيث وصفت أدواتهم وأعرافهم وتقاليدهم وأديانهم، وكلّ ما يتّصل ثقافتهم المادية وغير المادية، واستعانوا بهذه الدّراسات لتوسيع نفوذهم في هذه المناطق كما استخدموها في دراستهم لتطوّر المجتمع البشري وعلم الآثار لدراسة نماذج بشرية ما قبل التاريخ والتاريخ القديم. وتأسّست بفرنسا جمعة إثنولوجية عام 1839 تهتمّ بالأنتروبولوجيا الطّبيعية والثقافية من جهة وبالبحث الأثنوغرافي من جهة أخرى، ولقد انتشرت الدّراسات الأثنوغرافية عند الفرنسيين –كما أشرنا- بفعل الاستعمار وكان الهدف منها دراسة الشعوب المستعمرة، والبحث عن خصوصياتها الإثنية واللغوية والعرقية والاجتماعية والحضارية والثقافية ولقد استعان بها المبشرون في حملاتهم الصّليبية، كما استعان بها العسكريون خاصة في الجزائر ومن أبرز الدّراسات ما يلي: **دراسة "أدولف هانوتو"** (Adolphe Hanoteau) وقام بالعديد من الدّراسات الأثنوغرافية بمنطقة القبائل، ولعلّ أقدمها جمعه لمدوّنة في الشعر تناولت مواضيع كثيرة منها الشعر السياسي والتاريخي والشعر الغنائي، وكان اهتمامه الأكبر ينصب

على الشعر النسوي الذي تُؤدّيه النّساء في مناسبات مختلفة كالولادات والأعراس والجنائز وسائر المناسبات الدّينية والاجتماعية، كما ألّف كتابا ضخما يحمل عنوان: les coutumes Kabyles (عادات قبائلية) والذي ألّفه رفقة صديقه ومواطنه "**أرستيد لوتورنو**" (Aristide Letourneux) تناولا فيه عادات وتقاليد سكان منطقة القبائل وهي دراسة سطحية فقط لم يستطع الباحثان الولوج في أعماق الثقافة القبائلية كونهما انطلقا من دلالات لغوية سطحية.

بالإضافة إلى أسماء أخرى درست مجتمعات شمال إفريقيا مثل: هنري باسي (Henri Basset) من الباحثين المهتمّين بالثقافات الشرقية وخاصة آداب شمال إفريقيا، بما فيها الآداب الأمازيغية، وقام بدراسات ميدانية عديدة ترتبط بالدّين والفولكلور والتاريخ. وأيضا أخوه **روني باسي** (René Basset) وهو أيضا من الباحثين الأنتروبولوجيين الفرنسيين الذين اختصوا بدراسة ثقافة شعوب شمال إفريقيا، إذ اعتمد في دراساته على رحلاته الميدانية المتكرّرة لاسيما في المغرب والجزائر، واهتمّ بدراسة منطقة القبائل كحيز جغرافي محدّد بشمال الجزائر، وخلص في الكثير من دراساته إلى أنّ الطّقوس بشمال إفريقيا وبالتحديد بمنطقة القبائل على حدّ كبير من التنوّع وتختلف أهداف تأديتها من طقوس العبور أو المرور أو كما سمّها بطقوس الاجتياز.

وبعد انتهاء الاستعمار تخلّت الدول الغربية وعلى رأسها فرنسا عن دراسة الشعوب المستعمرة والضعيفة والمتخلفة والبدائية –حسب مزاعمها- لتنكب على دراسة مجتمعاتها الخاصة بها، لتنفتح الأثنوغرافيا على موضوعات معاصرة كدراسة الطّبقات الاجتماعية ودراسة الإثنيات والأقليات القليلة العدد ودراسة الجماعات الغريبة والمختلفة عن الجماعات المتحضّرة.

ج/ بريطانيا والولايات المتّحدة الأمريكية:

تقوم الأثنوغرافيا في بريطانيا على البحوث الوصفية والتحليلية التي قام بها علماء الأنتروبولوجيا البريطانيون حول العالم، خاصة لدى الأقوام البدائية التي درسوها دراسة ميدانية، وقائمة هؤلاء الباحثين طويلة يتصدّرها كل من "فايتز" و"ريتشارد فرانسيس بيرتون" وخاصة "جيمس فرايزر" في أعماله الضخمة مثل "الغصن الذهبي" وهو دراسة موسّعة في الأساطير والأعراف الوثنية والطقوس والمعتقدات البدائية. وتجدر الإشارة إلى أنّ العلماء الإنجليز يفرّقون بين مصطلحي الأثنوغرافيا والأنتروبولوجيا، إذ يهتمّ الناسوث بالدّراسة الوصفية للمجتمعات البدائية، وتهتمّ الأناسة بالتحليل البنائي والتركيبي للمجتمعات مع أنّ كلا العلمين يتداخلان بخصوص الدّراسات العلمية التي يقومان بها.

بينما تقوم الأثنوغرافيا بأمريكا على هي دراسة وصفية لأنشطة جماعة إنسانية معينة، سواء أكانت جماعة بدائية تقليدية أم جماعة معاصرة ومتمدنة، بالتركيز على بنيات القرابة والتقنيات المادية والمعتقدات الدّينية والتنظيم المجتمعي، غير أنّه لا توجد هناك علاقة وثيقة بين الأثنوغرافيا والأنتروبولوجيا الاجتماعية بل توجد علاقة مرتبطة بين الأثنوغرافيا والأثنولوجيا. وهو ما يؤكّده العالم الأمريكي "هيرز كوفنتر" الذي يرى في دراسة له بعنوان: "الإنسان وأعماله" أنّ الأثنوغرافي هو وصف للحضارات، وبحث مشاكل النظرية المتعلقة بتحليل العادات البشرية للمجتمعات الإنسانية المتباينة.

أهداف الأثنوغر افيا:

- إنّ الهدف الأسمى للناسوث هو ربط ما هو نظري بما هو تطبيقي أي ربط النظريات الأثنولوجية التطبيقية العملية التي تقوم بها الأثنوغرافيا.
- تهدف الأبحاث الأثنوغرافية إلى جمع المعلومات والبيانات والمعطيات حول مجموعة من الظواهر الأثنولوجية المختلفة لجماعة من الناس، ثمّ تحاول المناهج العلمية وصفها ودراستها وأخيرا كتابة التقرير العلمي حول مختلف المراحل والعمليات التي أنجزتها الأثنوغرافيا في حقلها الميداني.
- تهدف الأثنوغرافيا إلى ربط التصوّرات والفروض الأثنولوجية النظرية بما هو عملي وتطبيقي وتجريبي واقعي، وفق رؤية علمية نزيهة ومحايدة وموضوعية.
- القيام بدراسات ميدانية بغية جمع المعطيات والبيانات والمعلومات حول الظاهرة الأثنولوجية المدروسة، ومن ثمّ تدوين تلك المعلومات وتسجيلها بشكل علميّ دقيق وتنظيمها بشكل منهجيّ مركّز.
- تهدف الأثنوغرافيا أيضا إلى توصيف البيانات والمعطيات المرتبطة بجماعة بشرية معيّنة في زمان ومكان محدّدين، ورصد طبيعة الجماعة والمجتمع وفق رؤية عملية حقلية تطبيقية وميدانية.
- أخيرا تهدف الأثنوغرافيا إلى المقاربة بين المجتمعات الأثنولوجية وفق بناها ووظائفها وتطوّرها.

2. مصطلح الأثنولوجيا (الأثنولوجيا):

يختلف مفهوم النياسة من بلد إلى آخر، ومن اختصاص إلى اختصاص آخر. وكان الباحثون يستعملون كلمتي نياسة وأناسة دون التفريق بينهما. وحتى سنوات قليلة كانت النياسة لا تزال تعتبر بمثابة دراسة المجتمعات الّتي كان يقال عنها: إنّها لم تعرف الكتابة ولم يتعمق فيها استعمال الآلة، فهي مرتبطة

بلفظة "البدائية" إلى غاية أزمنة متأخرة. وبدأت النياسة تبتعد شيئا فشيئا عن الحقل البدائي يوما بعد يوم، وتتجه نحو كلّ ما هو أجنبي وثقافة أجنبيّة.

الأثنولوجيا كلمة مشتقة من أصل إغريقي، مركبة من جزأين: "إثنوس" (Ethnos) أي العرق أو الجماعة، و"لوجيا" (Logos) وتعني الحكمة أو المعرفة أو العقل" وإذا أردنا تعريف مصطلح "إثنوس" نقول إنّه: "تجمع من الأشخاص الذين يشتركون في ثقافة واحدة ويتكلمون عادة لغة واحدة ويحذوهم وعي بالانتماء إلى هوية جماعة واحدة". ومن خلال هذا التعريف نستشفي أنّ النياسة تتشكّل بالأساس من ثقافة شعب معيّن قائم على عناصر الهوية المحلية.

تعد النّياسة الخطوة الثّانية من الجمع والتوليف ويقوم فيها الباحث بهاتين العمليتين وفقا للاتجاه الجغرافي، كما أنّها طريقة من طرائق البحث بقدر ما هي فرع من فروع المعرفة، فهي العلم الّذي يختّص بالجماعات أو المجتمعات الصّغيرة الأحجام. وعلم يعتمد منهجا وتقنيات قائمة على المشافهة والمعاينة والمقابلة، بل حتّى على السّيرة الذّاتية أكثر ممّا هي قائمة على الإحصائيات والتحقيقات المرهقة الّتي تعتمد استثمار الاستبانات على نطاق واسع. وجعلها "مرسيل غريول" الفرع المعرفي الّذي يحيل بنشاطات الشعوب المادية والرّوحية ويدرس تقنياتها وأديانها وشرائعها ومؤسساتها السّياسية والاقتصادية وفنونها ولغاتها وأعرافها. وتستخدم الأثنولوجيا تستخدم نفس أدوات الأثنوغرافيا ولكنّها تحتفظ ببعد غالباً ما يكون اعتدالياً ووصفياً، كما يمكن لها أيضا أن تتحكم بديناميكية مؤقتة تشمل كلّ مجتمع أو ثقافة. وهي صور فوتوغرافية وأشرطة سمعية وبصرية لأن الصّورة تعبّر أكثر على الواقع.

ويرى "جون كوبين" (Jean Copains) أنّ الأثنولوجيا تستخدم نفس أدوات الأثنوغرافيا ولكنّها تحتفظ ببعد غالباً ما يكون اعتدالياً ووصفياً، كما يمكن لها أيضا أن تتحكم بديناميكية مؤقتة تشمل كلّ مجتمع أو ثقافة. وهي صور فوتوغرافية وأشرطة سمعية وبصرية لأن الصّورة تعبّر أكثر على الواقع. فالإثنولوجيا –إذن- علم دراسة الشعوب والمجتمعات الإنسانية بوصفها خالقة وحاملة للحضارة، ودراسة الحضارة بعناصرها المادية والمعنوية في ارتباط واضح بالتفاعلات الدّاخلية للحضارة والتفاعلات الخارجية مع الحضارات الأخرى المجاورة وغير المجاورة.

تدرس الأثنولوجيا خصائص الشعوب اللّغوية والثقافية والسّلالية وتفسّر توزّعها الجغرافي نتيجة للهجرات واتصال الشعوب بعضها ببعض، وكذلك تدرس الحياة أو الجوانب المادية من الحضارة، وأشكال الحياة الاقتصادية وتنظيم المجتمع وطابع الأسرة والتنظيم العشائري والقبلي، بالإضافة غلى الحكم

والنظم القانونية والأعراف والعقائد الدّينية والفنون وغيرها من الأنشطة الحضارية التي يقوم بها الإنسان. وتهتمّ الأثنولوجيا بدراسة المجتمعات الإنسانية بوصفها خالقة وحاملة للحضارة، وميدانها الأساسي للدّراسة هو الجماعات والمجتمعات ذات الحضارة البدائية، وإن كان هذا الميدان قد اتّسع مؤخرا بحيث أصبح يشتمل على دراسة المجتمعات في الحضارات العليا القديمة، وامتد اتّساعه أيضا بتأثير تطوّر المدارس الحضارية الأمريكية إلى دراسة مجتمعات أوروبية الأصل تعيش في ظروف تكنولوجية حديثة. فأصبحت الإثنولوجيا –إذن- تدرس أساسا الأنماط الحضارية ذات الطابع البدائي والمعاصر والقديم، كما تدرس المجتمعات الحديثة أيضا في الأرياف والمدن وتأثير الهجرات في التركيبات الحضارية. فبالتالي نُسمي أخصائيي هذا الميدان: الأنتروبولوجيون الحضاريون والأنتروبولوجيون الاجتماعيون والإثنوغرافيون والإثنولوجيون بحسب المدارس التي ينتمّون إليها في أوروبا.

يتعلّم الإنسان ومنذ صغره كل التقنيات والعناصر التي تكوّن حضارة المجموعة التي ينتمي إليها، ولعلّ أوّل تلك الأمور اللغة كونها الوسيلة الأكثر أهمية للتواصل، والتي تمكّنه من التعرّف بسهولة على كلّ وسائل الحياة المتّفق عليها، بالإضافة إلى عوامل أخرى تؤهّله ليسلك السلوك المألوف داخل الجماعة. وتنظر الأثنولوجيا إلى الحضارة وتدرسها على أنّها:

- وسيلة لإعداد الأفراد للحياة داخل المجتمعات المختلفة.
- نمط السلوك الخاص بالمجتمعات المختلفة.
- أسلوب الحياة الذي يميّز مجموعة من المجتمعات التي تربط بينها درجات من التفاعل والاتصال.
- وسائل للحياة التي تميّز مكوّنات مجتمع كبير مرتب ومنظم مثل المجموعات الإقليمية أو الأقليات أو الطّبقات الاجتماعية.

والحضارة كائن عضوي شأنه في ذلك شأن الإنسان، تنبع من الواقع وتعيش فيه وتتغذى بالوراثة وتنمو بالتجربة الجديدة وتستجيب لكافة أنواع المؤثّرات الداخلية النابعة من المجتمع، والخارجية القادمة من مجتمع حضاري آخر. ويترتّب على ذلك أن تثري الحضارات وتتفاعل وتذوب، أو تتشكّل في صورة جديدة أو ترفض التطعيم فتنعزل وتذبل وتختفي وتموت مع مجتمعها. والملاحظ أنّ الحضارة أخذت أشكالا مختلفة عند المجتمعات الإنسانية، والسّبب في ذلك يعود إلى تفاوت الظروف طبيعية كانت أو زمنية تاريخية، وهو ما حاولت المدارس الأوروبية ونظريات الحضارة استفساره وإيجاد أسباب هذا التفاوت بين سائر الحضارات.

ولعلّ مدرسة فرنسا ومدرسة كل بريطانيا والولايات المتّحدة الأمريكية من أهم المدارس التي تبّنت الدراسات النياسية، غير أن مفهوم الإثنولوجيا عندهما يختلف بينهما وهو ما سنستعرضه :

أ/ في فرنسا :

تغيّر مصطلح الإثنولوجيا بفرنسا وأصبح يتبنّى مفهوم الأنتروبولوجيا، وظلّت ولفترة طويلة تعتمد على كلمة إثنولوجيا لأسباب أغلبيتها كانت مؤساستية وأكاديمية، وابتداءً من سنة 1927 بدأ المختصّون بتغيير التسمية بعدما كانت الإثنولوجيا تُدرس كتخصص في علوم الإنسان بالإضافة إلى وحدات أخرى ضمن معهد الإثنولوجيا التابع لمتحف الإنسان أين كانت تُدرّس وحدات الأنتروبولوجيا الجسدية والتكنولوجيا وما قبل التاريخ والألسنيات ... وكلّها كانت تابعة بدورها لمتحف التاريخ الطّبيعي لمعتقد كان سائرا آنذاك بأنّ الإثنولوجيا والأنتروبولوجيا فرعان من فروع التاريخ الطّبيعي. بالإضافة إلى ذلك أغلب الأنتروبولوجيين الفرنسيين ظلّوا ولفترة طويلة جدا يؤلّفون كتبا ودراسات في الأنتروبولوجيا الجسدية حول تصنيف الأعراق والجماعات الإنسانية، تتحدّث عمّا يسمّى بالأنتروبولوجيا النفسانية، والتي تهتمّ بدراسة الخصائص النفسية للإنسان أو الجماعات الإنسانية بصفة عامة باعتبار هذا التخصّص حصيلة للدّراسات السّابقة والتي تنتمي إلى حيّز الأنتروبولوجيا التشريحية والجسمانية، ومن هنا يمكن أن نربط بين الإثنولوجيا والأنتروبولوجيا لدى المدرسة الفرنسية.

وأخذ هذا المصطلح يتلاشى بالجامعات والمعاهد الفرنسية تحت تأثير مجموعة من العوامل منها: الصورة الازدرائية التي تتّخذها الإثنولوجيا لاسيما على إثر الدّراسات العرقية للمجموعات البشرية وأيضا كونها علما من شأنه أن يبرّر الاستعمار، فأصبح المصطلح قيد الاستخدام إلا عند فئة صغيرة من علماء علم الإنسان الفرنسيين.

ب/ في بريطانيا والولايات المتّحدة الأمريكية:

يرتبط مصطلح الأثنولوجيا (Ethnology) في كل من بريطانيا والولايات المتّحدة الأمريكية بالدّراسات التاريخية للحضارات وكان ذلك في القرن 19 للميلاد، ويؤكّد "راد كليف براون" أنّ الإثنولوجيا تعتمد على التاريخ التخميني الذي عادة ما يفتقد للعناصر التاريخية أو الأثرية الموثوقة. وتجدر الإشارة إلى أنّ المدرستين وبالرّغم من انتهاجهما واعتمادهما على هذا المصطلح إلا أنّ الإنجليز يتحدّثون عن أنتروبولوجيا

مجتمعية يقودها عالم الأنتروبولوجيا الاجتماعي "جيمس فرايزر" بينما يتحدّث الأمريكان عن أنتروبولوجيا ثقافية يقودها عالم الأنتروبولوجيا الأمريكي "راندلس".

وصفوة القول إنّ الأثنولوجيا تعبّر عن مفهومين مختلفين تماما الأوّل منهما هو أنّها دراسة الحضارة بعناصرها المادية والمعنوية، في ارتباط واضح بالتفاعلات الدّاخلية للحضارة والتفاعلات الخارجية مع الحضارات الأخرى المجاورة وغير المجاورة، فالاتفاق سائد على أنّه لا يمكن فصل الجماعة عن الحضارة إطلاقا، فلا وجود لحضارة دون جماعة بشرية والعكس صحيح. ويعبّر المفهوم الآخر للأثنولوجيا عن الخطوة الثّانية من البحث الميداني فالمنهج الأثنولوجي يعتمد على المرحلة الأولى أي الأثنوغرافيا أو الناسوث وهي مرحلة جمع المعطيات، ثم تأتي الأثنوغرافيا أو النياسة وهي مرحلة التفسير والتحليل.

قائمة المراجع :

1. إ. إيجنز بريتشارد، الأناسة المجتمعيّة (ديانة البدائيين في نظريات الأناسيين)، تر: حسن قبيسي، دار الحداثة للطّباعة والنّشر، ط1، بيروت، 1986.
2. جيامبيترو جوبو، إجراء البحث الأثنوغرافي، ترجمة: محمد رشدي، مراجعة: أحمد زايد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014.
3. كلود لفي ستراوس، الإناسة البنيانية، تر: حسن قبيسي، المركز الثّقافي العربي، ط1، بيروت، 1995.
4. محمد الخطيب، الأثنولوجيا، -دراسة عن المجتمعات البدائية-، دار علاء الدين، دمشق، ط2، 2010.
5. ليو فروبينيوس، أساطير قبائلية في خلق الكون وتصوّر العالم، تر: نبيل حويلي، دار الأمل، تيزي وزو، ط1، 2020
6. جاك لومبار، مدخل إلى الأثنولوجيا، تر: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدّار البيضاء، 1997.
7. Jean Copans, Introduction à l'Ethnologie et à l'Anthropologie, Nathan, Paris, 1996.
8. Jean Copans, L'enquête Ethnologique De Terrain, Paris, Nathan, 1998
9. Leo Frobenius, Contes Kabyles, Tr: Mokran Fetta, Tome: 1, Edi sud, Aix en Provenance, France, 1995
10. René Basset, La religion des Berbères (De l'antiquité jusqu'à l'islam), Edition : Tafat et Essai, Alger, 2011.

المحاضرة رقم 10

في التكوين والانتشار

تطوّرت الدّراسات الأنتروبولوجية وظهر اتجاه جديد، وهو الاتجاه الانتشاري والذي يعتمد على فكرة مفادها أنّ نشأة الحضارة الإنسانية كلّها ترجع إلى مصدر واحد أي إلى مجتمع واحد، ومنه انتشرت إلى أماكن أخرى من العالم. ونتيجة لذلك نتج احتكاك ثقافي وعملية الانتشار لبعض السّمات الثقافية أو كلّها وقد ظهرت نظرية الانتشار الثقافي بغية الكشف عن حلقات لربط الثقافات معا نتيجة تفاعلها جغرافيا وزمنيا. وهي بذلك تلتزم أيضا بالمبدأ التاريخي في علاقات الثقافات بعضها بالبعض الآخر.

ويقوم الاتجاه الانتشاري على مبدأ هام وهو أنّ النظم الاجتماعية كثيرا ما تستعار أو تنتقل من مكان إلى آخر، وبناءً على ذلك فإنّ تشابه النظم الاجتماعية والعادات في المجتمع الواحد أو المجتمعات المختلفة لا ينشأ على محو تلقائي، إنّما يكون ناتجا عن التشابه في الإمكانات الاجتماعية والطّبيعية والإنسانية. وتعتمد ظاهرة التباين بين الحضارات في المجتمعات الإنسانية على مبدأين هما:

- أنّ الاتصال بين الشعوب المختلفة كان بفعل الاحتكاك الثقافي الحضاري المباشر وغير المباشر.
- عملية انتشار بعض المكوّنات الحضارية أو أغلبها من مصادرها الأصلية إلى المجتمعات الأخرى سواء بالرّحلات التجارية أو بالكشوف أو الحروب أو الاستعمار أو الغزوات ... وهذان المبدآن على ما يبدو مكتملان في دراسة الظواهر الثقافية، ويمكن من خلالهما تفسير التباين الحضاري بين الشعوب.

كما اعتمد هذا الاتجاه أيضا منهجا تاريخيا جغرافيا، قاده الألماني "فريدريك راتزال" الذي اهتمّ بدراسة الاتّصالات والعلاقات الثقافية القائمة بين الشعوب ودورها في تحقيق نمو الحضارات، ولعلّ أفكار هذا الاتجاه تشبه كثيرا آليات المنهج التاريخي الجغرافي في الدراسات الأدبية الشعبية والتي تتزعّمها المدرسة الفنلندية بقيادة "أنتي آرني" وأيضا "طومسون".

ويرى "فريدريك راتزال" وطلبته وعلى رأسهم "هوينريخ شورتز" أنّ الزّراعة اعتمدت على الفأس أو المحراث التقليدي، وهو ما يفسّر الاختلافات بين الثقافات الزّراعية وادّعا أيضا "هان" أنّ تدجين الحيوانات أعقب اكتشاف الزراعة المعتمدة على الفأس، ويفترض أن تكون تلك الزراعة قد ظهرت في عدّة

مرّات في أجزاء مختلفة من العالم، غير أنّه يؤكّد أيضا أنّ الزراعة بالمحراث وتدجين الحيوانات واكتشاف عجلة الفخاري قد تمّت كلّها في الشرق الأدنى ثم انتشرت وانتقلت إلى بقية أجزاء العالم.

أمّا عالم التشريح "إليوث سميث" وتلميذه "ليم بيري" فيستعرضان رأيا يرجّح بأنّ الحضارة الإنسانية قد نشأت بمصر على ضفاف النيل منذ حوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، وحينما توفّرت الظروف المناسبة وتطوّرت بعض وسائل السّفر اتّصلت الجماعات البشرية بمظاهر تلك الحضارة المصرية القديمة وانتشرت، وبالتالي انتقلت إلى أرجاء أخرى من العالم. خاصة حينما نعلم أنّ تلك الشعوب فشلت في تحقيق حضارات فاضطرّت إلى الاستعانة بالحضارة المصرية التي بلغت أشدّها وحقّقت تقدّما مذهلا حيّر العلماء ولا يزال يحيّرهم. ولعلّ أعمال "إليوث سميث" من أهمّ الانجازات التي مسّت حضارة الإنسان المصري، إذ انكبّ على دراسة المخ في المومياء المصرية، وأقام بمصر ولاحظ أنّ الثقافة المصرية تضمّ عناصر كثيرة يوجد ما يوازيها في ثقافات بقاع العالم، ولم يقتصر القول فقط على أنّ العناصر متشابهة في البلاد المجاورة لمصر وحوض المتوسط والهند والفرس ... من أصل مصري بل حتى العناصر المماثلة في بيئة محيطي الهادي والهندي وفي ثقافات إندونيسيا وماليزيا والأمريكيتين وكلّها تعود إلى منبع واحد هو مصر.

أمّا علم الأثنولوجيا الألماني "ليو فروبينيوس" الذي يعدّ من أكبر الباحثين والمختصّين الأوروبيين الذين درسوا القارة الأفريقية وكرّس جلّ بحوثه فيها. وباشر منذ عام 1884 بإيداع ملفات ضخمة في بطاقات توزيعية، وقد نزل إلى الميدان في أوّل الرحلات الميدانية سنة 1904 حيث حاول إخضاع حدسه لاختبار فعل الملاحظة. كما أنّ المدوّنة وجميع الوثائق التي انتشلها من الميدان والتي بلغ عددها 250000 وثيقة شكّلت الدّعامة الأساسية لمعهد الدّراسات الإفريقية الذي أنشأه عام 1922، والذي أصبح يعرف عالميا باسم: "معهد ليو فروبينيوس". وطوّر فكرة انتقال الثقافات عبر المحيطات والقارات بادعائه حدوث انتشار ثقافي من إندونيسيا إلى إفريقيا. وحاول في دراسة له تحمل عنوان: "أصل الثقافات الإفريقية" والذي أصدره عام 1898 إثبات وجود دائرة ثقافية ماليزية زنجية في غرب لإفريقيا، ويفسّر ذلك بانتقال نفوذ ثقافي إندونيسي في صورة موجة ثقافية وصلت إلى سواحل إفريقيا الشرقية ودخلت وسط القارة واستقرّت أخيرا في شقّها الغربي، وهناك لا تزال بقايا هذه الثقافة واضحة المعالم، بينما اختفت معالمها في شرق إفريقيا بسبب الهجرات المتكرّرة لقبائل البانتو والحاميين. ويعدّ "ليو فروبينيوس" أوّل من دأب على وضع مفهوم "الدائرة الثقافية" في الدّراسات الأثنولوجية وطوّره من بعده آخرون وعلى رأسهم "شميدت" والذي يعرّف هذه الدائرة بأنّها تلك التي احتوت على كلّ شيء: النواحي المادية والاقتصادية والاجتماعية

والاعتيادية والدّينية، ويطلق عليها اسم الدائرة الثقافية لأنّها متكاملة وتعود على نفسها مثل الدائرة، فهي تكفي نفسها بنفسها ومن ثمّ تؤمن استقلال وجودها، فالثقافة في حالة ما إذا أهملت أو فشلت في إرضاء واحد أو أكثر من الاحتياجات الإنسانية الهامّة، تتيح حدوث تعويض من ثقافات أخرى، وكلّما زاد عدد عناصر التعويض تقلّ هذه الثقافة عن أن تكون دائرة ثقافية مستقلّة.

وعلى نقيض هذه الآراء والاتجاهات وعلى رأسها رأي "ليو فروبينيوس" والتي ترجّح فكرة المنشأ الواحد للحضارة الإنسانية، نجد النظرية الانتشارية التي تعتمد الأصل الثقافي الحضاري المتعدّد المراكز، ويتقدّم علماء هذا الاتجاه "فريتز جرايبز" و"وليم شميدت" وغيرهما ... وافترضوا وجود مراكز حضارية أساسية وعديدة في أماكن متفرّقة من العالم، ونشأ من التقاء هذه الحضارات واحتكاكها بعضها ببعض دوائر ثقافية تفاعلت فيما بينها مشكّلة عمليات الانصهار وتشكيلات مختلفة. ويعدّ الباحث الأمريكي "وايسلر" أوّل من استعمل هذه الدائرة الثقافية بهذا المعنى في دراسة له لثقافة هنود الحمر بأمريكا الشمالية, والملاحظ في أصحاب هذا الرأي أو الاتجاه أنّهم لم يقدّموا الدلائل عن أماكن وجود تلك المراكز، أو حتّى عمليات تتبّع عمليات حركات الاتصال فيما بينها ودراسة النتائج المترتّبة عن ذلك. ولكن ورغم ذلك قدّم أصحاب هذا الاتجاه عنايتهم الكبيرة باختيار معايير الحكم على قيمة وقائع الاقتباس المفترضة وإصرارهم على الحيطة في استخدام مصادر المعلومات ودقّتها في تحديد تعريفاتهم وغنى ثقافتهم والتي تتجاوب مع متطلّبات البحث العلمي الدقيق.

"فريتز جرايبز" فقد أسهم هو الآخر في علم الأنتروبولوجيا وذلك في التحديد الدّقيق الموضوعي لمعايير تقييم انتشار بعض العناصر الثقافية من شعب إلى شعب آخر، وحسب رأيه فالنظام الاجتماعي والثقافة سائدان عند الجماعة ولهما تأثير انتقائي، إذ يُحوّلان دون قبول نماذج لا تنسج البتة مع النّسق القائم، مع أنّه لا يمكن تجاهل أثر الاقتباس على الأنظمة الاجتماعية، حيث تتوقّف فرص الاقتباس على تلك الاحتكاكات التي تكون أغلبها وليدة المصادفات.

أمّا في أمريكا فقد ظهرت الانتشارية مع الباحث الميداني "فرانز بواس" المختصّ في دراسة مجتمع هنود الحمر بأمريكا الشمالية، وقد استهوته الدّراسات الأنتروبولوجية وقام برحلة ميدانية غلى شبه جزيرة بافن في كندا، وقام بدراسة أثنولوجية، ومن خلال دراسة الشكل والتوزيع الجغرافي لمصدر السّمات الثقافية وهجرتها وانتقالها واستعارتها عن طريق الاتّصال بين الشعوب، ويمكن للباحث أن يستدلّ عن كيفية

نشأة تلك السّمات وتطوّرها وبالتالي الوصول إلى نظرية تتوفّر فيها عناصر الصدق والبرهان لتفسير المجتمعات الإنسانية وتطوّر النظم الاجتماعية أو السّمات الثقافية.

ولكي نشمل أهمّ نقاط الاتجاه الانتشاري يمكننا الاستعانة بدراسة قدّمها "كوبرز" ضمن دراسة له حول الانتشارية ضمن كتابه "الأنتروبولوجيا المعاصرة":

1. يشتمل التاريخ على كلّ فترة منذ ظهور الإنسان إلى يومنا هذا، ويكون الإنسان والثقافة متزامنان.
2. لا يمكن لأحد من العلماء نفي ظاهرة الانتشار الثقافي، فهو أمر واقعيّ يتقبّله العقل.
3. ترجّح الانتشارية نشأة الثقافة إلى المنشأ الواحد للحضارة الإنسانية، كما تعتمد الأصل الثقافي الحضاري المتعدّد المراكز.
4. يعدّ الاتجاه الانتشاري مبدأً هاما في الدّراسات الأثنولوجية والأنتروبولوجية ودراسات ما قبل التاريخ خاصة إذا علمنا أنّه ثمّة نقص الوثائق المكتوبة، وأنّ أغلب الثقافات القديمة كانت تعتمد على الشفوية، الأمر الذي يقتضي دراسات مقارنة للصّفات الثقافية.
5. تستعين النظرية الانتشارية بآليات المنهج التاريخي الذي لن يؤدّي إلى تاريخ مماثل كما نجده في الكتابات التاريخية العلمية، غير أنّ دراسة العناصر الثقافية لا تحلّ محلّ الوثائق التاريخية ولكنّها تعطي صفات هامة في هذا الاتجاه.
6. تقوم الدّراسات الانتشارية على مبدأ المتشابهات الثقافية حتى في الحالات التي لا نستطيع فيها التأكّد من وجود ارتباطات وهجرات بين تلك المتشابهات.

وكما أشرنا إليها أعلاه يعتمد هذا الاتجاه على المنهج التاريخي الجغرافي، بقيادة الألماني "فريدريك راتزال" الذي اهتمّ بدراسة الاتّصالات والعلاقات الثقافية القائمة بين الشعوب ودورها في تحقيق نمو الحضارات، وما شدّ انتباهنا هو أنّ أفكار هذا الاتجاه تشبه كثيرا آليات المنهج التاريخي الجغرافي في الدراسات الأدبية الشعبية والتي تتزعّمها المدرسة الفنلندية بقيادة "أنتي آرني" وأيضا "طومسون". وفي سبيل توسيع الأفق نقترح هذا النموذج التطبيقي لثلاث حكايات من مناطق جغرافية متباعدة ولكن مغزى الحكاية هو نفسه، فالأحداث تتشابه إلى حدّ كبير.

نموذج تطبيقي: حكايات: عصفور المطر من منطقة القبائل (الجزائر)، جميز بن يازور شيخ الطيور (فلسطين)، الذئب الرمادي (فرنسا)

النّص الأوّل: "عصفور المطر" (منطقة القبائل، الجزائر)

"أماشاهو يُروى عن رجل لديه سبع بنات. ولم يكن لديه طفل ذكر، وكانت الصغرى أجمل الفتيات وأذكاهن، فخاطب بناته قائلا: "آه يا بناتي العزيزات لديّ سبع بيضات إن أنا تركتهن فالأمر صعب عليّ، وإن أنا أكلتهن فالأمر يصعب عليّ أكثر"، فلم تفهم بناته كلام أبيهن ماعدا الصغرى التي فهمت ما كان يقصده والدها فقالت: "لا عليك يا أبي إن أردت أن تذهب للسفر والحج فاذهب، ولا تقلق علينا فنحن قد كبرنا". وقال في يوم من أيّام الرب لبناته: قد قرّرت الذّهاب إلى الحجّ، وأنتنّ على علم بأنّه ليس لنا أحد من الأقارب. "سأتغيّب يا بناتي طويلا وأترك لكنّ غذاء عام كامل على الأقل ... فحذار من أن تفتحن الباب لأيّ كان، سأملي عليكن علامة: فعندما أعود أنا سأرمي لكن بتين مجفف من السقف، حين ذلك افتحن لي الباب". مرّت الأيّام فقصدهنّ أحد، أخذ يناديهن من وراء الباب، تنكّر في زيّ وصوت امرأة: "يا بنات أختي افتحن لي الباب"، قالت البنات الكبريات: "سنفتح الباب". نطقت الصغرى: "لا نفتح الباب، فقد حذّرنا أبونا من ذلك". ولكنّ لم يعد بعدها لأنّه توفي في طريق العودة إلى الدّيار. الأمر الذي جعل الفتيات يتناوبن في الخروج إلى الغابة قصد اقتناء ما يأكلنهن، ولمّا جاء دور الفتاة الصغيرة خرجت من بيتها، وما إن دخلت أطراف الغابة حتى أمسكت عصا صغيرة وبدأت تقول في نفسها: "إن شكل هذا العصا غريب"، وما إن سمعها الغول حتى تمثّل لها وخرج من بين الأشجار وخاطبها قائلا: "أنا أدعى عصفور المطر، وها أنتِ قد كبرت، ووصلت إلى سن الزواج فهل لك أن تتزوّجيني؟ وبمقابل ذلك سأوفّر لك ولأخواتك كل ما ترغبنه من طعام وشراب"، كما اشترط هو أيضا عليها ألا تراه أبدا حينما يدخل عليها في اللّيل. وافقت الفتاة على اقتراح الغول وأخبرها عن موعد الخطوبة وقال لها بأنه حينما سيحضر سوف تحدث هناك اضطرابات وتقلبات في الجوّ. وفي يوم الخطوبة جاء عصفور المطر في هيئة حصان محمّل بكل أنواع الطّعام وكل ما تشتهيه النفس من عسل وزبدة وفطائر وحلوى،... وكانت السّماء ملبّدة بالغيوم، وبعد فترة بدأت العاصفة تحلّ والرّياح تعصف بقوّة والأمطار تتساقط بغزارة، ولما وصل إلى مقربة من بيت الفتاة، علمت أنّه يوم زفافها ورحيلها فودّعت أخواتها وذويها وامتطت الحصان دون أن تدري أنّه هو عصفور المطر وذهبت مع زوجها صوب بيتها الجديد. وكان كلما يدخل عليها تطفئ كل الأنوار لكي لا ترى وجهه، ولم تعرف شيئا عن هيئته الفيزيولوجية.

وذات يوم أجهشت بالبكاء شوقا إلى ذويها وأهلها، وأرادت زيارة أهلها فأخبرت زوجها بذلك وترجّته. قال لها: زيارتك لأهلك هلاكك، كرّرت عليها طلبها فأقنعته وأخبرها بأن حصاني هو الذي سيقودك حيث أهلك خذي ما شئت من هدايا وعطايا ولكن هذا الحصان سينام حيث تنامين وسيأكل حيث تأكلين. أخذها

الحصان ووصلت إلى أهلها فرحّبوا بها، واصطحبت أخواتها الحصان إلى الإسطبل رغم رفضها. فسألنها: كيف تعيشين، وكيف هي أحوالك؟ فقالت لهنّ: "لا ينقصني شيء أعيش كالملكة ولكنّي لا أراه ... لا أرى هذا الرّجل. وأقنعتها الأخوات بأن الذي تزوجته قد يكون وحشا سيقضي عليها لاحقا، أعطينها مصباحا وحرّضنها على إشعاله خفية، ووضع غطاء عليه. ورفع الغطاء عند دخوله لتراه، تقبّلت الأمر وأخذت المصباح. وكان هو يستمع للحديث من الإسطبل. رجعت من بيت أهلها ومعها المصباح، وحينما نام أشعلته ورفعت عنه الغطاء فرأته وكان أجمل الفتية على الإطلاق فتسرّبت قطرة زيت من المصباح فأصابته في وجهه، غضب فقال لها زيارتك لأهلك هلاكك، لولا شفقتي عليك لأكتلك وأكلت الأرض التي تطئينها وطار بعيدا في الأفق.

خرج عصفور المطر مغادرا البيت، قصد أمّه وتركها هي لوحدها، اتّبعته ولمّا وصلت حيث أمّه الغولة رأتها وثارت ثائرتها وأتت بكومة من القمح والحمص والعدس ... وطلبت منها فرزها وإلا اتهمتها، فقام عصفور المطر وناد على النمل وفي اللحظة أفرز كلّ الحبوب، ولما رأت المهمّة المنجزة قالت الغولة: "أنا متأكّدة بأن هذا من صنيع عصفور المطر! وبعد ذلك قدّمت لزوجة ابنها عملا آخرا حيث أمرتها بنتف ريش طيور السّماء لملء الوسادات والطنافس بالبيت، وأمام حيرتها وعجزها جاء عصفور المطر وأمر جميع الطّيور بأن تلقي ريشها في مكان واحد وقامت زوجته وملأت كل الوسادات والطنافس. ولمّا جاءت حماتها الغولة قالت: "أنا متأكّدة ومرّة أخرى بأن هذا من صنيع عصفور! قامت الغولة بعد ذلك بإحداث عاصفة من الرّيح والمطر والغبار فقالت لها: "سأخرج وحينما سأعود أبدأ بلحس الباب الخارجي، فإذا علقت ذرّة من الغبار في لساني أو رائحته بأنفي أكلتك وأكلت الأرض التي تطئينها. وأخذت تبكي وتبكي من جديد فدخل عصفور المطر ووجدها على تلك الحالة فأحدث مطرا غزيرا نظّف كلّ البيت ثمّ أتبعه بريح جفّتها ولمّا رجعت الغولة لم تعثر على أي أثر للغبار فقالت من جديد أنا متأكّدة بأن هذا من صنيع عصفور المطر! وذات يوم قامت السّعلاة بدعوة أخواتها ليشاركنها في التهام زوجة ابنها وبينما هي في طريقها رفقة قام عصفور المطر وبمساعدة الخنازير البرية بحفر حفرة كبيرة في وسط البيت، وملأها بالأغصان الجافة ووضع القليل من الوقود، وما إن دخلت السعلاة وأخواتها سقطنا في الحفرة ليشعل عصفور المطر النيران وتلتهبن جميعهن ويعيش رفقة زوجته في سعادة وهناء". النّص مترجم من اللغة الأمازيغية. روتها السّيدة: حواء حويلي، قرية الشرفاء، دائرة عزازقة، ولاية تيزي وزو، أكتوبر 2011، ليلا.

النّص الثاني: "جميزبن يازور، شيخ الطّيور" (فلسطين)

يحكى عن أب تاجر له ثلاث بنات، كانت الصغرى "ستّ الحسن" جميلة جدّا وكان أبوها يحبّها كثيرا. قرّر الذهاب إلى الحج فسأل بناته عمّا يرغبن فيه من هدايا. طلبت الكبرى سوارا من ذهب، وطلبت الوسطى ثوبا مطرّزا بأغلى حرير وطلبت الصغرى "ست الحسن" جميز بن يازور، شيخ الطّيور"، وإن لم يأتها به وقعت جماله بالعقبة. ذهب إلى الحجّ، ولمّا كان راجعا وقعت جماله بالعقبة، فتذكّر بأنّه نسي "جميز بن يازور، شيخ الطّيور". التقى في طريقه بشيخ عجوز دلّه على بيت "جميز بن يازور، شيخ الطّيور" ونصحه بأن يقف أمام بابه مناديا: "جميز بن يازور، شيخ الطّيور" ابنتي تطلبك.

بحث عن بيته، وقف على بابه وردّد ما نصحه به الشيخ، وعاد إلى بيته بعد ثلاثة ليال. وصل حينذاك الطّائر مرفرفا على نافذة "ست الحسن"، فتحت له النّافذة فدخل، نفض جناحيه فتحوّل إلى شاب جميل. بقي على تلك الحال يأتيها كلّ ليلة وفي الصّباح يتحوّل إلى طائر ويترك لها كيسا من الذّهب تحت المخدّة ويرجع. ولمّا علمت أختاها بالأمر ودبّت فيهما الغيرة طلبت منها الكبرى بأن تسأله عمّا يؤذيه كثيرا ببلده. طلبت منه "ست الحسن" فأجابها بعد إسرارها الطّويل بأنّه الزجاج، فإذا جرح لن يشفي أبدا.

أخبرت أختيها فكسّرتا الزجاج النافذة التي يدخل منها. ولمّا حاول الدّخول مساءً، جرح فطار راجعا إلى بلاده. انتظرته "ستّ الحسن" طويلا ولم يرجع، وعرفت بأن أختيها خدعتاها وأنّ "جميز بن يازور، شيخ الطيور" مريض. خرجت في زيّ متسوّلة تجوب البلدان باحثة عنه. جلست في طريقها تحت شجرة فوقفت عليها حمامتان تتحدّثان. أشارت واحدة منهما إلى مرضه القاتل، وأشارت أخرى إلى أنّ شفاءه على ذبح حمامة –غيرهما- وتصفية دمّها وإحراق ريشها ثم خلط الدّم المصفّى بالريش المحترق ودهن جروحه بذلك. سمعت "ست الحسن" الحديث فعلمت به وسارت هائمة بالدّواء منادية بأنّها الطّبيب المداوي. مرّت أمام بيته أطلّت أخواته من النافذة باكيّات مردّدات بأنّ أخاهنّ مريض ولم يقدر على علاجه أحد.

دخلت "ستّ الحسن" وبقيت تدهن جروحه بالدّواء مدّة أسبوعين. استرجع وعيه وعرفها، أخبرها بأنّها أخطأت في حقّه وأخبرته بأن أختيها كانتا السبب وليست هي فسامحها. عرفت أخواته بأنها حبيبته ويريد الزّواج منها فأمرنها بمجموعة من الأعمال الشّاقة وهي وإن لم تقم بها سوف لن تنال مرغوبها بالزّواج من "جميز بن يازور، شيخ الطّيور" كأن تفرز كومة كبيرة من الحبوب وتنظيف البلد كلّه ثم بجلب ريش الطّيور لصنع عشرة أفرشة للعرس مبطّنة بريش الطّيور ثم بجلب طبق الغولة وهو أعسر اختبار. كانت في كلّ مرّة تقصد "جميز بن يازور، شيخ الطّيور"باكية تطلب مساعدته، واستعان بمجموعة من المخلوقات المسخّرة له والمظاهر الطبيعية كالمطر والريح فنجحت "ست الحسن" في اختباراتها ولكنه أخواته أدركن

أنها من صنعه، ووافقن على الزّواج وأقاموا عرسا تزوّجها وطارا بعيدا وعاشا في التبات والنبات". روتها امرأة في الستينات من القدس، وجمعها: إبراهيم مهوّي وشريف كنعانة، قول يا طيل نصوص ودراسة في الحكاية الشّعبية الفلسطينية، مؤسسة الدّراسات الفلسطينية، بيروت، 2001، ص115-118.

النّص الثالث: "الذّئب الرمادي" (فرنسا)

تبدأ الحكاية بالإشارة إلى أنّ أحداثها وقعت حين كانت للدجاج أسنان. وهي تدور حول فلاح أرمل كان يعيش مع بناته الثلاث. قاد في أحد الأيّام أبقاره إلى المرعى فالتقى بذئب ذي شعر مشيب. فطلب منه الذئب بأن يزوّجه بإحدى بناته الثلاث. خاف الفلاح وأخبره بأنّه لا يمانع ولكنّه سيستشيرهن أوّلا، وهدّده الذئب بالموت غن لم يفعل. أخبر الفلاح بناته بما حدث، وبالتالي يجب على واحدة منهن قبول الزّواج من الذئب إن أردن أباهن حيّا. رفضت الكبريان وقبلت الصغرى التي كانت تحبّ أباها أكثر منهن. وصل الذئب في اليوم الموعود وقاد الفتاة إلى الكنسية. اندهش النّاس حين رأوها جميلة مع ذئب في طريقهما إلى الكنيسة. بدأ رجل الدّين يردد صلاته، وبدأ جلد الذئب يسقط من على جسده. وحين أتمّ الصلاة، ظهر الذّئب أميرا جميلا. رجع الزوجان إلى مزرعة الفلاح وكان الحفل. أخذت الغيرة تدبّ في نفس الأختين الكبريين. عاشت الصغرى سعيدة مع زوجها وبعد تسعة أشهر أنجبت ابنا، قام الأبوان بتعميد الطّفل وخبأ أبوه جلد الذّئب الذهبي بعلبة الحليّ وأغلقها بالمفتاح. أعطى زوجته المفتاح وحذّرها من فتح العلبة أو ترك أحد ما يفتحها. وقبل خروجه أوصاها أيضا بالسهر على الجلد لكي لا يحدث له أي شرّ، لا عن طريق الماء ولا عن طريق النّار. فإذا حدث ما حذّرها من حدوثه فلا تراه قبل أن تستعمل ثلاثة أنواع من الأحذية الفولاذية لتبحث عنه، فوعدته بأن تستجيب لنصائحه وتحذيراته.

سمعت أختاها –اللتان كانتا مختبئتين- الحديث كلّه. وعندما خرج الأمير الذئب دخلتا غرفة أختهما النفساء، وأخذتا المفتاح بقوّة وفتحتا العلبة ورميتا الجلد بالنّار. شمّ الأمير وهو يدخل الكنيسة الجلد المحترق فصرخ بقوّة ورجع إلى البيت جاريا. صرخ في وجه زوجته التي تركت أختاها تحرّقان الجلد وهدّدها بأنّه سيرحل ولن تلتحق به قبل أن تستعمل ثلاثة أزواج من الأحذية الفولاذية. وترك لها ثلاثة جوزات قد تنفعها إذا كسّرتهن متتاليات في الحالات الصّعبة جدّا. أسرعت لتمسك به وتمنعه من الذّهاب إلا أنّها لم تستطع. اتّبعته جارية وراءه وأمرها بأن لا تتبعه لكنّها لم تبال. نظر وراءه لاكمها في وجهها فسالت الدّماء على ثوبه تاركة ثلاث بقع من الدّم. أعلمته داعية بأنّها لا تمحى إلا إذا أمحتها هي، وكانت حين غادرت فراشها قد صنعت ثلاثة أزواج من الأحذية الفولاذية. لبست زوجين من الأحذية وأخذت تمشي وتمشي

طويلا بحثا عن زوجها. وأخذت تسأل عن مكان تواجده دون جدوى فلبست الزوجين الآخرين حتى وصلت إلى جبل عال يستحيل صعوده. ورأت على أسفل الجبل مستنقعا وأمامه ثلاث نساء يغسلن الملابس على ضفّته، كانت واحدة منهن ماسكة ثوبا عليه ثلاث بقع من الدّم لم تقدر التخلّص منها، رأتها الفتاة فقالت لها أعطيني إياه سأحاول تنظيفه وكانت قد عرفت بأنّه ثوب زوجها. بزقت على البقع ووضعت الثوب بالماء فانمحت. سألتهن فأجبنها بأنّهن خادمات القصر المجاور، وأنّ سيّده سيتزوّج بعد غد من أميرة رائعة الجمال. ولكي يعترفن لها بالجميل اصطحبنها للمبيت معهن في القصر. لم تتمكّن من النوم وزوجها سيتزوّج بعد غد. تذكّرت الجوزات التي تركها لها لاستعمالها حين الحاجة. كسّرت واحدة فخرج عدد كبير من الأشياء الثمينة والنفيسة. حملتها ووضعتها في الطّريق الذي سيمرّ منه الموكب في اتجاه الكنيسة، ولمّا رأت الأميرة تلك الأشياء النفيسة من ذهب ومجوهرات وأحجار كريمة توقّفت وسألت المرأة عن ثمنها فأخبرتها بأنها لا تبيعها ولكن بالمقابل وإن سمحت لها الأميرة بقضاء ليلة زفافها الأولى مع زوجها، فوافقت على ذلك. ولما انتهى الحفل اتجه العروسان إلى غرفتهما وضعت الزوجة الجديدة مسكّرا في مشروب زوجها فأسرع للنوم. أدخلوا المرأة الأجنبية إلى غرفته، أدخلوا المرأة الأجنبية (زوجته الأولى) فنامت أمامه. لكنّه كان مستسلما لنوم عميق نادته ولكن دون جدوى، بكيت حتى الصباح خرجت وتواصلت الاحتفالات، كسّرت الجوزة الثانية فخرجت أشياء أثمن من المرّة الأولى وعرضتها مجدّدا على الأميرة فتكرّر الأمر مجدّدا، وكانت تكلّمه متحسّرة متألّمة تبكي وتنوح. ومرّ خادم القصر للمرة الثانية وهو يستمع إلى الكلام نفسه، فأخبر سيّده وأعلمه أيضا أنّ بأنّ الأمير كانت تضع مسكرا في كأسه قبل نومه، ولهذا لم يستمع إلى كلام المرأة الأجنبية. فكسّرت المرأة الجوزة الثالثة عرضتها على قارعة طريق القصر فاشترتها الأميرة مجدّدا مقابل ليلة ثالثة مع زوجها، فقرّر الأمير ألا يتكرّر الأمر في تلك الليلة، فغيّر موقع كأسه فنامت زوجته أمّا هو فبقي ينتظر ما سيحدث واصطنع النوم ودخلت المرأة الأجنبية فأخذت تبكي وتنوح كعادتها وبدأت شكواها وتحصّرها، سمعها فقام من فراشه وعانقها وبكيا من الفرح. قضيا الليلة يحكيان آلامهما وسفرهما وطارا بعيدا راجعان إلى قصرهما ليعيشا في سعادة وهناء". مترجم من اللغة الفرنسية، روتها مارغريت فيليب نوفمبر 1869، من حكايات بريطانيا السفلى/فرنسا.

Michèle Simnsen : Le conte populaire français, Ed : PUF, Paris, 1984

قائمة المصادروالمراجع:

- سامية جابر، علم الإنسان، مدخل إلى الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، دار العلوم العربية، بيروت، ط2، 1998.

- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، منشورات اتّحاد كتّاب العرب، دمشق، 2004.
- ميلفيل هيرسكوفيتز، أسس الأنتروبولوجيا الثقافية، ترجمة: رياح النفاخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط2، 1989.
- محاضرات عبر الخط قدّمها الأستاذ الدكتور: سفيان ميمون، قراءة في الاتجاهات والنظريات الأساسية في الأنتروبولوجيا، بتاريخ: 4 مايو 2012، https://www.politics-dz.com
- حسين فهيم، قصّة الأنتروبولوجيا: فصول في تاريخ الإنسان، عالم المعرفة، الكويت، ط1، 1986.
- جميل حمداوي، الأنتروبولوجيا الثقافية بين النظرية والتطبيق، ناشرون، بيروت، ط2، 2018.
- Lucien Lévy bruhl, la mentalité primitive, Ed : Presses universitaires de France, 5eme édition, Paris, 1967.
- Claude Levi Strauss, le pensée sauvage, Ed : Pocket, 3eme édition, Paris, 1985.

المحاضرة رقم 11

الاتجاهات والنظريات الأساسية لتطوّرعلم الإنسان في القرن العشرين

التطوّرية الجديدة:

ونعني بها تلك الفلسفة الاجتماعية التي تحاول تفسير التطوّر الثقافي، والتي تمتدّ جذورها إلى منظري القرنين الثامن والتاسع عشر، من أمثال "سبنسر" و"فيكو"، والتي وجدت تطبيقا ميدانيا كما رأيناه في الاتجاه التطوّري مع "لويس مورغان" و"تايلور". وتتألّف التطوّرية الجديدة من مجموع النظريات التطوّرية التي ظهرت في بداية النصف الثاني من القرن العشرين للميلاد، على يدّ مجموعة من الأنتروبولوجيين الذين بدأوا يضعون نظرية خاصة لتلك المجتمعات الإنسانية ومراحل تطوّرها، ومدى التغيير الثقافي في ذلك، وجاء على رأس قائمة هؤلاء التطوّريين الجدد، عالم الآثار الانجليزي "جوردن تشايلد"، والأمريكيان "جوليان ستيوارت" و"ليزي هوايت" هذا الأخير الذي دعا إلى إيجاد محاكاة أخرى يمكن قياسها لمستويات التطوّر، ويرى أنّه لا يجب على النظرية التطوّرية أن تقتصر على تحديد مراحل معيّنة لتسلسل النمو الثقافي، ولكن ينبغي إبراز العوامل التي تحدّد هذا التطوّر مبديا فكرته بأنّ الطاقة هي المحرّك الرئيسي لتقدّم الشعوب. أي أنّ المضمون التقني في ثقافة ما يحدّد الكيان الاجتماعي واتجاهاته الإيديولوجية، فمثلا هناك مجتمعات يستخدم أفرادها قدرا محدّدا من الطاقة تُنشئ عندهم نظم دينية وسياسية واقتصادية أقلّ تعقيدا من تلك التي تتكوّن في مجتمعات تكثر فيها وتتنوّع استخدامات الطاقة والإمكانيات التقنية فيها. وجاء طلبته من بعده بتعبيرات أكثر تجليا واتّساعا، ولعلّ من أبرز العناصر الرئيسية للاتجاه التطوّري ما يلي:

- ضرورة الالتزام بمبدأ الحتمية المادية.
- الاعتماد على أشكال مختلفة من التناظر الوظيفي العضوي.
- استخدام بعض مفاهيم ومبادئ نظرية التطوّر الداروينية ومن بعده "مورغان" و"تايلور".
- الثقة في إمكانية صياغة قوانين ثقافية.

ويصرّ الأنتروبولوجيون التطوّريون الجدد بضرورة تطبيق مفهوم الارتقاء على التاريخ الثقافي، حيث يرى طلبة "هيسلي هوايت" أنّ التطوّر يعادل الارتقاء ويكون ذلك حينما تعلو الأشكال الأعلى على الأشكال الأدنى وتقضي عليها. كما قدّم طالباه "سيرفيس" و"سالينس" العلاقة بما أسماها بقانون السيادة

الثقافية، الذي ينصّ على أنّ النظام الثقافي الذي يستغلّ مصادر الطاقة المتوفّرة في محيطه بكفاءة أعلى سيظهر قدرته على الانتشار في ذلك المحيط على حساب الأنظمة الأقل كفاءة، كما أنّ النظام الثقافي يظهر ميلا للنشوء تحديدا في بيئات تمكّنه من تحقيق عائد طاقة أعلى لوحدة العمل أكثر من أية أنظمة أخرى.

وانقسمت النظرية التطوّرية الجديدة إلى ثلاث مدارس تسعى كلّ واحدة منها إلى تحقيق أهدافها العامة، وهي على النحو الآتي:

أ/ المدرسة الأولى: ترى هذه المدرسة أنّ تاريخ البشرية موحّد، وأنّ الإنسانية مرّت بنفس المراحل عبر أصقاع العالم، وتأخذ بالرأي القائل بأنّ التاريخ إنّما يتّجه في تتابع وحيد حيث تتطوّر النظم والعقائد استنادا إلى مبدأ الوحدة السيكولوجية لبني البشر.

ب/ المدرسة الثانية: تعتمد هذه المدرسة في الاتجاه الثقافي التطوّري على آليات المنهج المقارن، حيث تعالج التتابع التطوّري للنّظم والمعتقدات الإنسانية، ويكون ذلك عن طريق عقد المقارنات المنهجية المنظّمة بين الشعوب والثقافات في المراحل الأولى للثقافة والبحث عن مصادرها التي نشأت في المجتمعات الإنسانية.

ج/ المدرسة الثالثة: وهي التي تأخذ بفكرة البقايا والمخلّفات والرواسب الثقافية، على أساس أنّ هذه البقايا والآثار إنّما هي شواهد منطقيّة قائمة في المجتمعات والتي مرّت بمراحل أقلّ تطوّرا وأخرى أكثر تركيبا وتطوّرا.

وتعرّضت التطوّرية الجديدة لمجموعة من الانتقادات لإهماله المنجزات التي حقّقتها نظرية التطوّر البيولوجية الحديثة، وأنّ التطوّريين الجدد لا يعيرون سوى القليل من الاهتمام إلى الأصول الأولى للتنوّع الثقافي، ويرون فيه تواتر احتياجات مدركة بالحواس، وهو ما يعني النظر إلى اتجاه التنوّع الثقافي كوظيفة التنوّع الأولى أكثر منه نتاجا للاصطفاء الطّبيعي.

وأدّت التطوّرية الجديدة إلى نشوء تخصّص يبحث في العلاقات المتبادلة بين البيئة الطّبيعية والثقافة، وعرف بعدها بالإيكولوجيا الثقافية، وتعود جذورها إلى "هيبوقراط" اليوناني وتطوّر مع "مونتسيكو" الذي وضع أسس هذا الاتجاه، وتبعه الكثير من العلماء الذين يرون بأنّ العوامل الطّبيعية والمناخية تؤثّر في المظهر الخارجي والجسدي للإنسان. فيعتمد هؤلاء الأيكولوجيون الثقافيون –إذن- في تفسير التباين بين

ثقافات الشعوب المختلفة على ظاهرة التنوّع البيئي، والكشف عن كيفية تأثير الثقافة مع ما يحدث في البيئة من تغيّرات جذرية على تكيّف الفرد وتفاعله الاجتماعي، ويستند هؤلاء بسكان الإسكيمو وأستراليا الأصليين وتأثّر ثقافة هؤلاء بالبيئة المحيطة.

وظهرت عدّة اتجاهات في الدراسة الأنتروبولوجية استمرّت حتى نهاية السبعينات، وأغلبها كانت في خدمة الإنسانية بعيدا عن ارتباطات استعمارية بعد استقلال الشعوب الإفريقية والأمريكية والآسيوية والأسترالية، ونركّز على الاتجاهين التغييري الموجّه والتطبيقي. ولا بأس قبل الشروع في ذكر الاتجاهات الجديدة، بتقديم فكرة موجزة عن علاقة الأنتروبولوجية بالاستعمار من خلال كتاب قدّمه "جيرارد لكلرك" (Gérard Leclerc) بعنوان: "الأنتروبولوجيا والاستعمار" (Anthropologie et colonialisme) ترجمة اللبناني "جورج كتورة"، ويكشف هذا الكتاب التصدّي القائم على إدعاء الإمبريالية الغربية أنّها نشرت الثقافة من خلال الحركة الاستعمارية التي قادتها إلى دول العالم الثالث، وكشف زيف التمسّك بالعلم لأهداف لا علمية على الإطلاق، ولكشف فكرة بطلان فكرة الحياد العلمي، وليس من الغريب أن تترافق فترة ازدهار بعض العلوم الإنسانية كالأنتروبولوجيا مع فترة ازدهار التوسّع الغربي الأوروبي وبعده الأمريكي على دول المستعمرة ودول العالم الثالث. ولا يعني ذلك غياب وعي المثقّفين الذين تواطأوا مع مخاطر هذا العلم الذي يزاولونه، بل عبّر الكثير منهم عن وقوعهم ضحيّة هذا العلم إذ ارتضوا على العمل في حقل الأبحاث الخاص بهم، والأمر ينطبق على كلّ الشعوب المتمدّنة من إداريين وعسكريين ورهبان وغيرهم ... فمثلا في الجزائر نجد من يقوم بمهمّة دينية ولكنّه في الوقت ذاته يعاين المجتمع ويدرسه بغية التوغّل فيه واكتشاف مواطن قوّته وضعفه مثلما فعل "جون فوا " (Henri Genevois) خلال تواجده بمنطقة القبائل، ونفس الأمر ينطبق لمواطنيه العسكريين "أدولف هانوطو" (Adolf Hanoteaux) و "لوتيرنو" (Aristide Horace Leterneux) اللذين دوّنا عادات وتقاليد سكان قرى القبائل. وذكر صاحب الكتاب أمثلة كثيرة من هؤلاء العلماء الذين لم يأخذوا على عاتقهم تحليل المجتمعات غير الغربية مثل "ستيوارت" و"آدم سميث" و"ريكاردو" فهي تشكّل بالنسبة لهم النقطة صفر التي يمكن بواسطتها شرح نظرية قيمة العمل، واعتبر هؤلاء الغرب أنفسهم على الدوام ممثلين للحضارة وأنّ مجتمعات الدول المُستعمرة تختلف كلّية عن مجتمعاتهم المتمدّنة. ونمثل في هذا الصدد بالباحث "ستانلي" في مجمل رحلاته يرسم صورة الرجل الأبيض القادر كسيّد كبير على حلّ المعضلات جميعها، والذي لا يهزّه شيء إطلاقا.

أ/ الاتجاه التغييري الموجّه:

هو الذي يقوم بدراسة عملية المثاقفة، وهذا بعد تلاشي الحركة الاستعمارية الأوروبية، واتّجه علماء الأنتروبولوجيا إلى دراسة طبيعة التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن استخدام التكنولوجيا الحديثة في المجتمعات المستعمِرة بهدف التنمية والتطوير، غير أنّ الواقع أكّد غير ذلك إذ إن نقل التكنولوجيا إلى تلك المجتمعات وجد عراقيل كثيرة وأضرارا تصيب الإنسان وبيئته، وذلك بسبب عدم مناسبة استخدامها فيها، وهو ما يؤكّده عالم الأنتروبولوجيا الأمريكي "جورج فوستر" حينما قدّم في دراسة له بعنوان: "الثقافات التقليدية والتغيير التكنولوجي" مجموعة من التحليلات التي تساعد في قبول التغيير مركّزا على المضامين الاقتصادية والثقافية والنّفسية.

ب/ الاتجاه التطبيقي:

عرفت الأنتروبولوجيا قفزة نوعية في ستينات وسبعينات القرن العشرين، وهذا عائد إلى تراجع توظيفها لأغراض سياسية أو استعمارية مثلما كان عليه الأمر سابقا، وظهر على الواجهة مصطلح جديد يُطلق عليه الأنتروبولوجيا التنمويّة، إذ أصبحت اهتمامات الأنتروبولوجيين قائمة على تقديم خبراتهم المعرفية والميدانية والنظرية والتطبيقية في خدمة المشروعات الاقتصادية والاجتماعية، خاصة في سبيل خدمة عمليات التغيير التنموي ومن نماذج هذا التقدّم التنموي الذي تسعى الأنتروبولوجيا إلى تحقيقه تأسيس لجنة تدرس المسؤوليات الأخلاقية من طرف الجمعية الأنتروبولوجية الأمريكية انتهى بإصدار بيان وثيقة الأخلاقيات الأنتروبولوجية عام 1973، حدّدت بموجبها علاقات ومسؤوليات الأنتروبولوجيين تجاه الدول والمجتمعات، وتنقسم هذه الوثيقة إلى ثلاث اتجاهات متنوّعة:

الاتجاه الأوّل: قائم على نزعة تقليدية تقوم على ضرورة تقديم الباحث للحقائق التي يحصل عليها كما هي ومن دون الاهتمام بنتائجها، باعتبار أنّ العلم منفصل عن القيم الأخلاقية، ويقوم هذا الاتجاه أيضا على العلاقة بين تراتب أنواع المعرفة ودور الأنماط المختلفة للتعبير والتواصل في نشر المعرفة، ومظاهر الابتعاد والاقتراب من المعرفة، وأخيرا الحالات الخاصة من التباعد بين الأطر الاجتماعية والمعرفة. ويعدّ الأمريكي "غرينتش" صاحب محاولة جادّة في تصنيف أنواع المعرفة وأشكالها من جهة، وتحديد العلاقة بين المعرفة والأطر الاجتماعية من جهة أخرى.

الاتجاه الثاني: ويركّز على مبدأ النسبية الثقافية ودور القيم في الثقافة، أي أنّ الأحكام فيها تُبنى على التجربة، ويفسّر كل فرد التجربة حسب ثقافته الخاصة، كما أنّه يمكن لأي ثقافة أن تعزّز ثقافة عالمية سائدة من قبل، مثلا: المعمول به لدى جميع الشعوب أنّ الاتجاهات الرئيسية هي أربعة، ولكن هناك

قبائل لدى هنود الحمر ترى بأنّ عدد الاتجاهات هو ستة وليس أربعة، إذ يضيفون إلى الشرق والغرب والجنوب والشمال اتجاهين آخرين هما الأعلى والأسفل، وهذا انطلاقا من آراء قابعة في ثقافتهم تقول بأنّ الكون ذو ثلاثة أبعاد، وهم بذلك أقرب إلى الواقع من غيرهم. وأمثلة مثل هذه كثيرة تجعل الكثير من الأنظمة لدى مختلف المجتمعات تؤمن بضرورة إعادة التحقّق من صحّة نظرياتها.

الاتجاه الثالث: وتمثّله عالمة الأنتروبولوجيا المعاصرة البريطانية "كاتلين جوف" من خلال دراسة لها تحمل عنوان: "ثورة العالم وعلم الإنسان" وتقوم آراؤها على ضرورة تبنّي الباحث الأنتروبولوجي مواقف أيديولوجية معيّنة قبل إجراء أي دراسة، وتشير الباحثة إلى أنّه على الأنتروبولوجيين تحديد موقفهم تجاه أمرين: إمّا المواصلة في خدمة الاستعمار أو المناهضة والابتعاد عن أشكاله التقليدية خاصة أن أغلب الباحثين يتبنّون أيديولوجية غربية واضحة المبادئ والأهداف خاصة تجاه المجتمعات الضعيفة والنامية. وترى أنّ أغلب الدّراسات الأنتروبولوجية تقوم على عبارتي: "متمدّن وبدائي" وهما كلمتان متقابلتان يحملان مؤونة مشحونة والتمييز بينهما هام جدّا لدى علماء الأنتروبولوجيا، فكلمة متمدّن عادة ما يستخدمها الغرب لوصف شعوبه الغربية المتحضّرة، بينما تُستخدم كلمة "بدائي" لوصف الشعوب التي جرت الأعراف على أن يهتم بها علم الأنتروبولوجيا، وفي حقيقة الأمر هذه الشعوب هي التي منحت معظم المعطيات الأولى لهذا العلم. ونخلص في الأخير إلى أنّه لولا تلك المجتمعات البدائية –كما سمّها الغرب- والبسيطة –كما نسمّيها نحن- لما تطوّر علم الأنتروبولوجيا.

المصادر والمراجع:

- ناصر إبراهيم، الأنتروبولوجيا الثقافية (علم الإنسان الثقافي)، دار صابر، بيروت، ط1، 2001.
- محاضرات عبر الخط قدّمها الأستاذ الدكتور: سفيان ميمون، قراءة في الاتجاهات والنظريات الأساسية في الأنتروبولوجيا، بتاريخ: 4 مايو 2012، https://www.politics-dz.com
- هرسكوفيتز مليفيل، أسس الأنتروبولوجيا الثقافية، تر: رباح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق، 1987.
- فهيم حسين، قصّة الأنتروبولوجيا، فصول في تاريخ الإنسان، عالم المعرفة، الكويت، 1986.
- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ط1، 2004
- إبراهيم ناصر، الأنتروبولوجيا الثقافية (علم الإنسان الثقافي)، دار جرير، عمان، ط1، 1985.
- A. Hanoteaux et A. Leterneux, Les coutumes Kabyles, Chalamel, Paris, 1869
- Henri Genevois, Village de Kabylie, Tome : 1, Enag, Alger, 1995
- Philippe Descola, L'écologie des autres : l'anthropologie et la question de la nature, Ed : de la maison des sciences de l'homme, Paris, 2016.

المحاضرة رقم 12

الأنتروبولوجيا الاجتماعية

1. علاقة الأنتروبولوجيا بعلم الاجتماع:

يعدّ علم الاجتماع الدراسة العلمية للظاهرة الاجتماعية، وفي الحقيقة تتقارب الأنتروبولوجيا مع علم الاجتماع لكونهما يدرسان مواضيع متشابهة، بقدر ما نجد أنّ المجتمع مرتبط بعلم الاجتماع والثقافة مرتبطة بالأنتروبولوجيا بقدر ما نجد العكس أي المجتمع كذلك مرتبط بالأنتروبولوجيا والثقافة مرتبطة بعلم الاجتماع.

ولهذا السبب فنقول إنّ العلاقة بينهما تكاملية؛ لأنّه في إطار الأنتروبولوجيا الاجتماعية نجدها تستعين بنتائج الدراسات السوسيولوجية، كما أنّ علم الاجتماع يستخدم المنهج الأنثروبولوجي في الدراسات الميدانية (مثلما هو الحال في الملاحظة بالمشاركة)، ويمكن الإشارة إلى التداخل الشديد بين علم الاجتماع والأنتروبولوجيا غير أنّ الفرق الوحيد هو الغاية منهما، فعلم الاجتماع غايته التركيب، والأنتروبولوجيا غايتها التفكيك.

2. تعريف الأنتروبولوجيا الاجتماعية:

تعرّف الأنتروبولوجيا الاجتماعية بأنّها دراسة السلوك الاجتماعي الذي يتّخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، ونسق القرابة، والتنظيم السياسي، والإجراءات القانونية، والعبادات الدينية، وغيرها.... كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواءً في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية، ومن البديهي أثناء دراسة الإنسان وأعماله ونشاطاته، أن نميّز بين عبارة "الثقافة" وعبارة "المجتمع" المرافقة لها، فالثقافة كما جاء في تعريفاتها هي طريقة حياة شعب ما، وما تضمّه من معارف شاملة ومعتقدات وتقاليد وأعراف وفنون شفوية وطقوس وسحر وخزعبلات وغيرها ... أمّا المجتمع فهو تكتّل منظّم يتكوّن من مجموعة من الأفراد، يتفاعلون فيما بينهم ويتّبعون طريقة حياة معينة تفرضها الجماعة، وإذا أردنا الاختزال نقول: إنّ المجتمع مؤلف من أناس، وطريقة سلوكهم هي ثقافتهم.

وتقوم الأنتروبولوجيا الاجتماعية على مجموعة من تصنيفات المؤسسات والأنظمة الاجتماعية، وأدوات نافعة للأغراض الوصفية التي تُجرى على نطاق دراسات أغلبها ميدانية، كما أنّ التعميمات بالنسبة

للعلاقات المتداخلة والمتبادلة بين النماذج والمؤسسات تساعد في الاهتداء إلى نوع من أنواع النظم، وسط ارتباك واضح في العلاقة، وفي زيادة الفهم الحقيقي للعمليات الاجتماعية، وفي الوقت ذاته، يعتمد هذا الفهم على دراسة النسق الكلي الذي يؤلف النظام الاجتماعي جزءًا منه، ويظم هذا النسق ثلاثة عناصر تتمثّل في شخصيات الأفراد الذين يؤلفون المجتمع ويكونون هم كذلك جزءً منه، والبيئة الطبيعية التي يتعين على المجتمع أن يكيّف حياته وثقافته معها، وأخيرا المجموعة الكاملة من الوسائل الفنّية والتقنية اللازمة للمعيشة، التي تضمن استمرار بقاء المجتمع عن طريق نقلها عبر الأجيال. وبالتالي يصبح النظام الاجتماعي تعبيرا تقنيا يدلّ على المظهر الأساسي لدى حياة الجماعة الإنسانية، يتكوّن من مجموعة من النظم تساعد في تأليف إطارا لأنواع السلوك المنتجة داخل المجتمع.

ولعلّ اللغة والحياة الاجتماعية المنظمة، من أهمّ العوامل التي ساعدت الإنسان في نقل الثقافات عبر الأجيال، فاللغة هدفها الأسمى هو التبليغ والاتصال وهو ما مكّن الفرد من التواصل وتسهيل ظروف التبادل المعرفي، كما عملت الحياة الاجتماعية أيضا على جعل الإنسان في حاجة إلى إرث اجتماعي، يفوق في ثروته ما تحتاج إليه الحيوانات، وتمّت المحافظة على المجتمعات البشرية، بتلقين الأفراد والأجيال المتلاحقة وتعليمها ، لتكون الثقافة بذلك المؤلّف الأول لتلك الجماعات الإنسانية. ونخلص إلى أنّ دراسة الأنتروبولوجية الاجتماعية تهدف بالضرورة إلى تحديد العلاقة المتبادلة بين مجموعة النظم الاجتماعية سواء كان ذلك في المجتمعات القديمة التي تُدرس من خلال مخلّفاتها الأثرية والمادية والفكرية والفنّية، أو في المجتمعات المعاصرة التي تُخضع للدراسة من خلال الملاحظة المباشرة لمنجزاتها وتفاعلاتها بشكل عام.

نشأة الأنتروبولوجيا الاجتماعيّة:

يوصف علم الأنتروبولوجيا الاجتماعيّة بأنّه علم حديث العهد بل من أكثر العلوم الاجتماعيّة حداثة، فقد استخدم المصطلح "الأنتروبولوجيا الاجتماعية" للمرّة الأولى عام 1980، عندما كرَّمت جامعة "ليفربول" في "بريطانيا" السيّد "جيمس فريزر" ومنحته لقب أستاذ، على الرغم من حداثة هذا العلم، فقد مرّ بمراحل متعددة أسهمت في تطوره بدءًا من القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر.

فالدراسات التي أجريت في القرن الثامن عشر حول الأبنيّة الاجتماعيّة وأنساق القيّم السائدة فيها هي من أهم الدراسات التي مهدت لظهور هذا العلم، كما يعدّ النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة نشوء الأنثروبولوجيا كعلم معترف به، وقد أسهم في ذلك صدور العديد من الدراسات والكتب التي بحثت في هذا العلم وحددت معالمه الأساسيّة، لاسيّما مؤلفات كلّ من "تايلور وماكلينان" في انجلترا، و"بافونين" في

سويسرا، حيث اهتم هؤلاء بجمع المعلومات عن الشعوب البدائيّة وأبرزوها بصورة منظمة، من خلال دراسة النظم الاجتماعيّة، فوضعوا بذلك أسس علم الأنتروبولوجيا الاجتماعية.

وقد تمركزت هذه المرحلة بظهور مدرستين متداخلتين هما: النشوئية والتطورية.

النشوئية: بمعنى أنّه على العالم الأنثروبولوجي قبل أن يفسر عملية التطور في أيّ نظام اجتماعي من الماضي إلى الحاضر، لابد أن يعمد إلى تحديد نشأة هذا النظام وذلك بالعودة إلى المجتمعات البدائية لدراستها واستخلاص صفاتها وعلاقاتها باعتبارها تمثل تاريخ مبكر للجنس البشري.

التطورية: ركز علماءها على موضوعات معيّنة كالدين والعائلة والنسب، واعتبروا أنّ الحضارات البدائية المعاصرة، تمثل شواهد دالة على مراحل التطور الاجتماعي التي مرّت به الحضارة الحالية المتقدمة بمعنى (دراسة تطور العصور)

وبعدها وصلت الأنتروبولوجيا مع بداية القرن العشرين إلى مرحلة التخصص بدراسة البنى الاجتماعيّة للمجتمعات، ولاسيّما المجتمعات القديمة، حيث ازدادت الدراسات الميدانيّة وفي مقدمتها الدراسة التي قام بها الانجليزي "رادكليف براون" على سكان خليج البنغال، والتي اعتبرت المحاولة الأولى لفحص النظريات الاجتماعية بالعودة إلى مجتمع بدائي، وكذلك دراسة "مالينوفسكي" لسكان جزر "التروبوبرياند" لمدّة أربع سنوات واستخدم فيها لغة أهالي هذه الجزر، فكان بذلك أول أنثروبولوجي يتمكن من فهم حياة النّاس وعلاقاتهم الاجتماعية، من خلال تتبع عاداتهم وتقاليدهم وتحليل مدلولاتهم الاجتماعية.

لقد تابعت الأنتروبولوجيا الاجتماعية دراساتها المتقدمة، في النصف الثاني من القرن العشرين، ممّا أدى إلى اتساع هذه الدراسات وازدهارها، وبالتالي إلى التقارب بين الأنتروبولوجيا الاجتماعية والأنتروبولوجيا الثقافية... وتمّ اعتماد تطبيق المنهج التجريبي بدلا من المنهج المقارن، حيث يستند كلّ باحث أنتروبولوجي –في تطبيق المنهج التجريبي- إلى نتائج دراسة باحث آخر لمجتمع معين، ويقوم بدوره بالتأكد من صحة هذه النتائج من خلال قيامه بدراسة مجتمعات أخرى، وبذلك تصبح الفرضيّات المتفق عليها مبدئيا عامة في نهاية الأمر، أو معارف متداولة في مجال الأنتروبولوجيا الاجتماعية... وهذا ما عزز علم الأنتروبولوجيا في العصر الحديث.

أهداف الأنتروبولوجيا الاجتماعيّة:

ظلّت الدّراسات الأنتروبولوجية ولفترة طويلة تتأثّر بأفكار الباحثين التطوريين وعلى رأسهم "إدوارد تايلور" و"لويس مورغان" وغيرهما، إلى أن طرأت مجموعة من التغيّرات والتطوّرات ساهمت كثيرا في إرساء أسس الأنتروبولوجيا الاجتماعية والتي بدورها أعدّت الأرضية المناسبة لظهور الاتجاه البنائي الوظيفي الذي استحوذ على النصيب الأوفر من مجالات العلم والدراسات الأنتروبولوجية. وتسعى الأنتروبولوجيا الاجتماعية إلى تحقيق مجموعة من الأهداف يمكن حصرها كما يأتي:

1- تحديد نماذج عاليّة للأبنيّة الاجتماعيّة:

تحاول الأنتروبولوجيا الاجتماعية إلى تحقيق نوع خاص من التصنيفات ونماذج الأبنية الاجتماعية، غير أنّ الأمر صعب المنال ذلك لأنّ أغلب العلماء لم يتّفقوا ويحدّدوا مصطلحات عالمية متّفق عليها لمفاهيم الأنتروبولوجيا الاجتماعية، بالإضافة إلى غياب دراسات ميدانية للمجتمعات الإنسانية جميعها، رغم المحاولات الكثيرة التي قادت الرّحالة والمستكشفين عبر أصقاع البسيطة، ونخصّ بالذكر الرحلات الاستكشافية الأوروبية إلى القارة الإفريقية والأسيوية والأمريكيتين وأستراليا وجزر المحيطات.

ويتمتّع الإنسان بإمكانية تطوير سلوكه المكتسب ونقله بالتعلّم والوراثة، وبأنظمة اجتماعية معقّدة بالمقارنة مع الأشكال الاجتماعية الأخرى، لذلك فالمنطلق الأوّل لأي بحث من أبحاث حول المجتمع هو دراسة أنظمة اجتماعية معيّنة واعتبار كل واحدة منها وحدة متكاملة تنمّ عن الأخرى. والملاحظ أنّه ثمّة فروق نوعية بين الأنظمة والمجتمعات، لأنّ الأولى لا تحوي الثانية والعكس صحيح أي إنّ الثانية تحوي الأولى مع الإشارة إلى اختلافات واضحة عبر سائر المجتمعات الإنسانية العالمية، وهو ما أفادته الدراسات الحقلية التي أجريت عبر أنحاء العالم.

ومن جملة الملاحظات التي يبديها الباحث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية رسمه لصورة تتكوّن من عناصر يجمعها واحدة تلوى الأخرى تنتمي إلى النماذج الداخلية في تركيب النظام. وتمكّن الإنسان بواسطة أشكال اللغة بأنواعها الرمزية والشكلية التواصل وتحقيق التفاهم وتأسيس المباني الاجتماعية الأساسية كبنيان الأسرة، والتي تمثّل البنية أو الخلية الأساسية لبناء المجتمع، بينما نجد رتابة من المباني لدى كائنات أخرى ونعني هنا الحيوان، ممّا يجرنا بالقول إلى دخول تجارب سابقة في سبيل تأسيس تجارب لاحقة. وحاول الكثير من علماء الأنتروبولوجيا الاجتماعية تحقيق بعض النماذج العامة للأبنية الاجتماعية، ولعلّ أبرز هؤلاء الباحث الأنتروبولوجي الأمريكي "لويس مورغان" (Lewis Henri Morgan) الذي أصدر سنة 1851 عملا موثوقا بعنوان "عصبة الايروكيز" أبرز فيه آليات النظام الأمرسي (le système matriarcat) السائد

وسط الإيروكيز وجزر المحيطات. اهتمّ بنظم القرابة والنظم الاجتماعية والسياسية بشكل كبير وقام برحلات واسعة الأفق، كما أنّه اعتمد على بعض الرحالة الأثنوغرافيين وراسل المبشرين العاملين في جهات مختلفة من العالم ليستفسر منهم عن أنظمة القرابة والتنظيمات الاجتماعية لدى الشعوب التي ينشرون فيها المسيحية. وتعدّدت اهتماماته حول القرابة والمصاهرة والزواج بأنواعه الداخلي أو الخارجي وأصدر كتابا مهمّا بعنوان: "أنظمة القرابة والمصاهرة في العائلة البشرية". وتمكّن "لويس مورغان" من إقامة البرهان على أنَّ علاقات القرابة تسيطر على تاريخ الإنسان البدائي، كما اكتشف أن أنظمة القرابة في المجتمعات البدائية طبقية وليست وصفية وأن نقطة ارتكازها تبادل النساء بين الجماعات، وأن الزواج الخارجي لا يتنافى والزواج الداخلي فما الزواج الأول بين العشائر سوى تكملة للزواج الداخلي بين القبائل. كما درس "مورغان" نظام العشيرة ورأى بأنّها الشكل السائد في التنظيم الاجتماعي لدى جميع الشعوب التي تجاوزت مرحلة التوحش. وميز بين شكلين من أشكال العشيرة، العشيرة التي تنتسب إلى الأم والعشيرة التي تنتسب إلى الأب، وقال بالأسبقية التاريخية والمنطقية لأنظمة قرابة الأم على أنظمة قرابة الأب. وانطلاقته الأولى كانت في تحليله لأنظمة القرابة من واقعة لاحظها لدى سكان الإيروكيز الذين عاش بينهم واندمج في قبيلتهم. وبيّن أيضا درجات التحريم في الزواج والتي اندرجت مع مرور الزمن كتحريم الزواج بين الإخوة والأخوات.

2- تحديد مظاهر التداخل والترابط بين النظم الاجتماعيّة:

وتسعى الأنتروبولوجيا الاجتماعية إلى تحديد مبادئ التأثير والتأثّر المتبادل بين النظم الاجتماعيّة السائدة داخل الجماعات الإنسانية والتي تدخل ضمن نطاق البناء الاجتماعي الواحد، وهو الهدف الأسمى الذي يريد علماء الأنتروبولوجيا عامة تحقيقه، إذ يرفضون جل الدّراسات الأنتروبولوجية التي تقتصر على الجانب السطحي أو الوصفي فقط مثلما يفعل علماء الأثنوغرافيا على إثر عمل ميداني معيّن، وإنّما لابدّ من تحليل أنساق الوظائف الاجتماعية للنظم الاجتماعيّة ومقارنتها ومعاينة مبادئ التأثير بينها. وعمد الكثير من الباحثين وعلى رأسهم "راد كليف براون" إلى الدراسة التي ترمي إلى تحقيق ذلك عبر الدراسة الفيزيولوجية خلافا عن الدراسات المورفولوجية.

إنّ المشكلة الحقيقية للأنظمة الاجتماعية، هي مشكلة فلسفية أكثر منها مشكلة عملية، والمهم في الأمر هو أنّ مركب النماذج الاجتماعية التي تتكيّف بعضها مع بعض تكيّفا متبادلا –وهو ما اصطلح على

تسميته بالنظام الاجتماعي- يتطور ويعمل بارتباط مستمر مع سائر عناصر الثقافة، وأنّ النماذج يجب أن تتكيّف مع هذا النسق تماما كما تتكيّف بعضها مع بعض.

أمّا المجموع الكليّ للثقافة، فيجب أن يتكيّف بدوره أيضا، مع البيئة الطبيعية للمجتمع، لأنّ الإنسان قد يطور وسائل كثيرة ومتنوعة للسيطرة على البيئة واستغلالها، ولكنّه لا يستطيع أبدا أن يتحرر من أثرها. ولذلك يمكن القول: إنّ كلّ نظام اجتماعي، هو جزء من وحدة متناسقة متكاملة، أوسع جدا في مداها من النظام نفسه، أمّا العناصر التي تتكون منها هذه الوحدة، فهي متشابكة ومتداخلة، ولا يمكن فهم النظام الاجتماعي، إلاّ إذا درس في ضوء علاقته بالوحدة المتناسقة الكبيرة، التي تظم عناصر أخرى تظل تفرض باستمرار حدودا على نموّه وعمله. وبذلك يكون على الباحث –من وجهة النظر الوظيفية- أن يدخل في الحسبان عاملين أساسيين يلعبان دورا تبادليا وفاعلا في هذا النظام الاجتماعي أو ذاك وهما: النموذج الذي يعرفه الأفراد ويؤثر في سلوكاتهم من جهة، والثقافة التي تنشأ عليه هؤلاء الأفراد، والتي تعني بتلبية الحاجات الكليّة للمجتمع من جهة أخرى، وذلك لأنّ الأنظمة الاجتماعية لا يمكن أن تؤدي وظيفتها، إلاّ كجزء من المجموع الكلّي للثقافة.

3- تحديد عمليات التغيير الاجتماعي:

تسعى الدراسات الأنتروبولوجية الاجتماعية إلى تحديد معايير وخصائص عمليات التغيير الاجتماعي بمعدّلات ووتيرة تتراوح بين البطيئة والسريعة،و لقد لاحظ علماء الأنتروبولوجيا الاجتماعية وعلى رأسهم "راد كليف براون" أنّ الدراسات التي تسعى هذه الأنتروبولوجيا إلى تحقيقها قد اهتمّت بدراسة ما خلّفته الحروب الاستعمارية على الأنظمة القبائلية في كلّ من إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات. وتستلزم عملية التغيير أو التطوّر أشكال جديدة من الأنماط والأبنية الاجتماعيّة الجديدة، وتحديد كيفيّة تطور الظواهر الاجتماعية البسيطة إلى ظواهر اجتماعية مركبة ويكون ذلك عن طريق دراسات ميدانية عميقة ومركّزة. وتلعب الثقافة دورا حاسما في عملية التغيير الاجتماعي وتطوّره وكذا في النمط الفكري والسلوكي للأفراد، وسبب ذلك أنّ كل مجتمع لديه خصوصياته في نمط العيش.

أنموذج تطبيقي –قراءة في الفصل رقم 32 من "الغصن الذهبي" لجيمس فر ايزر، "طقوس أدونيس":

تُمارس طقوس أدونيس على نطاق جغرافي واسع يتمثّل في منطقة غرب آسيا وجنوب شرق أوروبا، وفيها يتمّ ندب موت الإله سنويا بالولولة المريرة خصوصا من قبل النساء، وفيها يُلبسون مجسّما على شكل جثة يحملونها وكأنّها في جنازة ثمّ يلقونها في البحر أو الينابيع، وفي أماكن أخرى يُحتفل بعودته في اليوم الموالي.

كما تختلف مظاهر الاحتفال من مكان إلى آخر، ففي الإسكندرية مثلا تُعرض صورتا أدونيس وأفروديت على مقعدين وبجانب كل منهما مجموعة من الفواكه الناضجة والفطائر والحلويات والنباتات التي تعيش في الأواني وتعاريش مجدولة مع اليانسون. ففي اليوم الأوّل يحتفل الحضور بزواج الحبيبين وترتدي النساء لباس الحداد وذلك في اليوم الموالي ويسدلن شعورهن ويفتحن صدورهن ويحملن صورة أدونيس الميت إلى شاطئ البحر ويلقين بها في الأمواج، وينشدن أشعارا تتلخّص مضامينها في عودة أدونيس المحتمة. أما عن فترة لإقامة الطقس لم يذكر بشكل صريح. وفي مكان آخر وبالتحديد عند حرم أستارت الفينيقي العظيم تقوم الجماعة بالحداد على موت أدونيس سنويا على وقع أنغام النواح على الشبّابة المصحوبة بالبكاء والرثاء وضرب الصدور، ويعتقد الجمع أنّ أدونيس سيعود في اليوم التالي ويصعد إلى السماء بحضور عابديه. أما العابدون الباقون على الأرض فيحلقون رؤوسهم تماما كما يفعل المصريون عند موت الثور الإلهي أبيس، أما النساء فيقمن بقص جدائلهن وإعطائها للغرباء. ويُقام الاحتفال الفينيقي في فصل الربيع عندما يتغيّر لون نهر أدونيس، ففي ذلك الفصل تغسل الأرض ترابها الأحمر في الجبال وتلوّن الأنهار وجزءً من البحر، وما هذا إلا لون الدم الأحمر وما البقع القرمزية إلا دمّ أدونيس لذي يجرح سنويا حتى الموت على يد عفرٍ في جبل لبنان. كما أنّ الشقائق الحمراء تتفتح في سوريا في عيد الفصح وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الاحتفالات المخلّدة لأدونيس تُقام في الربيع. ويُقال إنّ لون الوردة الأحمر يعود إلى المناسبة الحزينة لأنّ أفروديت هرعت إلى عشيقها الجريح وداست على غصن وردة بيضاء فجرحت أشواكها الحادة جسدها الطري ولوّنت دماؤها المقدّسة الورود البيضاء باللون الأحمر إلى الأبد.

وإذا قارنا هذه الطقوس بطقوس هندية أوروبية نجد أنّها تتشابه بطريقة واضحة، إذ هناك تطابق بين طقوس الإسكندرية والطقوس الهندية، ففي كليهما يقوم زواج كائنين إلهيين مرتبطين روحيا بالخضرة بدليل النباتات النضرة التي تحيط بهما، ثم يحزنون على الصورتين ويرمونهما في الماء. ومن خلال هذا التشابه من الطبيعي أن توقّع أنهما تعتمدان على التفسير ذاته، فطقوس موت أدونيس وبعثه هي تمثيل درامي لانحدار الحياة النباتية ونشيطها. وهناك قصّة تشير إلى أنّ أدونيس قد قضى نصف أو ثلث السنة في العالم السفلي والباقي في العالم العلوي، وهذا ما يؤكّد افتراضنا الطّبيعي أنّه يمثل الخضرة خاصة الحنطة التي تبقى مدفونة تحت الأرض نصف سنة وتظهر في النصف الآخر. ومن الظواهر الطبيعية السنوية الأكثر إيحاءً بفكرة الموت والبعث ظهور الخضرة في الربيع واختفاؤها في الصيف أو الخريف. وتنتقل فكرة موت الخضرة وإحيائها السنويين إلى ذهن الإنسان البربري أو المتحضّر ويأتي اتّساع مدى ذبول الخضرة وتوالدها من جديد بالإضافة إلى اعتماد الإنسان المباشر عليها في وجوده، ليجعلها أكثر

حوادث الطّبيعة تأثيرا على الأقل في الأقاليم المعتدلة، ولا عجب أن تكون هذه الظاهرة الأكثر أهمية والأكثر شمولية والأكثر إدهاشا بالمقارنة مع الأفكار المشابهة التي أثارت طقوسا مماثلة في كثير من بقاع الأرض.

وتظهر شخصيتا أدونيس وتموز كروح الحنطة في تقارير كاتب عربي من العاشر الميلادي، والذي وصف الطقوس والأضاحي التي يقدّمها السوريون في فصول مختلفة من السنة قائلا: "في منتصف تموز يُقام احتفال الباعقات أي النساء الباكيات وهو احتفال تا ـ أوز الذي يُقام على شرف الإله تا ـ أوز. وفيه تندبه النساء لأنّ سيّده قد ذبحه بشراسة وطحن عظامه في الرحى ونثر المسحوق ليطير مع الرياح. ولا تأكل النساء في أثناء الاحتفال أي طعام من مطحون الرحى بل يقتصرن على منقوع القمح والبيقية الحلوة والتمر والزبيب وما شابه، ولقد قيل:

لقد ضيعوا فوق اللهيب السافع

نقي عظامه

وأساء له الطحان شرّ إساءة

وطحنه بين حجرين.

ويرى "الأب لاغرانغ" أنّ النوح على أدونيس كان طقس حصاد أرادوا منه استرضاء إله الحنطة الذي اندثر تحت مناجل الحصادين أو ديْسَ حتى الموت تحت حوافر الثيران في أرض البيدر. وبينما كان الرجال يقتلونه كانت النساء يذرفن دموع التماسيح في بيوتهن ليخففن من سخطه الطّبيعي بإظهارهن الحزن على موته. ويأتي هذا الرأي مواتيا لموعد الاحتفال الواقع بين الربيع والصيف وليس الخريف لأنّهما فصلا الشعير والقمح في المناطق التي يُعبد فيها أدونيس. وما يؤكّد هذه الفرضية هو ممارسة الحصادين في مصر لطقوس الندب تحت اسم إيزيس عندما يقطعون أول سنابل الحنطة، كما يقوم بمثل هذا الطّقس الكثير من قبائل الصيد الذين يكنّون له احتراما كبيرا لأجل الحيوانات التي يقتلونها ليقتاتوا عليها.

الاحتفال بقدوم الربيع في الجزائر–منطقة القبائل أنموذجا-

ومن مخلّفات أساطير وطقوس الإحياء عبر أنحاء العالم، نتوقّف في منطقة القبائل بشمال الجزائر فلقد نالت الطّقوس حيّزا كبيرا من الدّراسات، وهي على قدر لا بأس به من الكتابات الوصفية والتي قاومت

النسيان وصارعت الزّمان، لتستمر مقوماتها عبر أنحاء منطقة القبائل. ولكن ما يلفت للانتباه هو غياب دراسات تنطوي على طقوس استقبال فصل الرّبيع وأيضا تلك المخلّدة لاستقبال فصل الصيف أو فصل الخريف،... ما عدا بعض المحاولات التي قام بها بعض الباحثين ولعلّ فصل الرّبيع هو ذلك الفصل البديع، الذي تكتسي فيه الأرض ببساط أخضر تتخلله الورود العبقة التي تنفتح وسط الحقول والمروج، كما أنّه الومضة المجدّدة للحياة وميقات ما يتبعه من فصول، وهو المحرّك الأساسي للإنسان القبائلي التقليدي لاعتبارات جمالية واقتصادية (زراعية). وأوّل هذه الممارسات هي غسل الصوف (ثرذا أُوزطا) إذ إنّ أهالي القبائل يغسلون الصوف ويجففونه في اللّيلة التي تسبق اليوم الأوّل من فصل الرّبيع ذلك لأنّه وفي اعتقادهم يعود الصوف إلى الحياة بعد فترة، وهناك علاقة قوّية بين الصوف والعجين كما ترويه نصوص أسطورية قبائلية مثل نص "الأم الأولى للعالم تخلق الخرفان" (أُنظر في قائمة المصادر والمراجع في نهايةالمحاضرة). ولقد قام بملاحظة هذا الاقتراب بين عمليتي الخلق والإحياء عالم الأنتروبولوجيا "ماكيلام" (Makilam) الذي –وفي دراسة له حول منطقة القبائل- يعادل بين عملية ترك العجين يختمر لتتجدّد فيه الحياة بما تقوم به النّساء القبائليات بعد جزّ الصوف وغسله، إذ يتركنه في مكان من الأماكن لمدّة خمسة أيّام أو سبعة ليخضع لعملية تحوّل فلا يحق لأحدهم لمسه، ولا يكشف عنه دون التعرض للخطر ويقال: إنّه ينضج ويتنامى خلال هذه الفترة كالعجين الذي يتصاعد وينتفخ أثناء الاختمار، فالصوف -إذن- ليس مادة مجرّدة من الحياة، بل إنّ له حياته التي تتحوّل باستمرار، فهو مقر لقوى حيّة.

ومن الممارسات الطقسية التي تؤدى مساء الاحتفال بقدوم فصل الرّبيع، ما تقوم به نساء قرية "شُرفَاء نْ-بَهلُولْ" بعرش "أيت الغيري" (عزازقة)، إذ يقمن بتحضير عشاء على شرف الحشرات حيث يجلبن كمية من الفطائر (ثِيغْرِيفينْ) التي صنعنها ذلك اليوم، مع كمية لا بأس بها من الحبوب والبذور والبقول الجافة وتقدّم للحشرات وتنادي النساء عليها قائلات: "أش أش أيَ أبعُوشْ، أسَّقِ ذِ-إمَنْسِيْنَكَ" بمعنى: "كفَّ كُفَّ أيتها الحشرات، تقدّمي، تقدّمي أيّتها الحشرات، فاليوم يوم عشائك". لتأتي الحشرات على شكل وفود وجماعات، خاصة النّمل يأتي مباشرة ليأخذ القسط الكبير من العشاء والنّمل في حقيقة الأمر حشرة مقدّسة ويحترمها جميع أهالي المنطقة، ويفسّر هذا الطّقس على أنّ الحشرات كانت في سبات عميق داخل بيوتها وبمجرّد بروز فصل الرّبيع عادت إلى الحياة، وجاءت لتتناول الطعام لأنّ ما ادّخرته انقضى بمجرّد انقضاء فصل الشتاء. وفي الفكر الميثولوجي القبائلي نجد أن النملة قد لقّنت الإنسان القبائلي الكثير من الأمور مثل كيفية زراعة الحنطة والحبوب وأيضا كيفية إعداد الدواء وادّخار الطّعام.

وما يهمّنا في طقوس استقبال الربيع وانتصاف فصل الصيف بالمنطقة هو ما تقوم به الوالدة أو العجوز في مساء يوم الاحتفال "بعنصلة"، إذ تعدّ طبقا مكوّنا من الدّقيق وزيت الزيتون يسمّى: "أشُبَاظْ" ثمّ تغليه داخل حساء ممزوج بنبتة أو حبة "أذرفيس" (نبتة تنمو في البراري بلون أحمر قاتم) الّتي تكون قد اقتطفتها من الحقول البرية وتقوم بخلط الطعام وينتج منه لون أحمر قاتم يشبه الدماء السائلة. وبعد نضج الطّعام تضعه داخل صحن كبير مصنوع من الطين وتجعل في وسطه حفرة صغيرة ممتلئة بزيت الزّيتون تكون بمثابة مرآة، لتأخذ أبناءها أو أحفادها الصّغار واحداً تلوى الآخر، وتمسح وجهه بقطعة من القماش الأحمر، وتردّد الكلام الآتي: "أفَّغْ أثَوْرَغْثْ، أگشَمأُثَزْوَغْثْ" بمعنى: "أخرج أيّها الاصفرار وأدخل أيها الاحمرار".

إنّ المرأة العجوز الّتي تقوم بمثل هذه الممارسات تحاول إحياء ما كانت تقوم به والدتها أو جدّتها، إنّها طقوس تتكرّر وتتوارث جيلا عن جيل. ويفسّر هذا الطّقس على أنّ العجوز حينما تأخذ قماشاً أحمراً تعيد الاحمرار على وجه الصّبيان أو على الأقل تبقيه وتبعد الاصفرار. ذلك أنّ الأحمر هنا دليل على الخصب والوفرة والجزلة، إنّه لون ذكري ونابذ، إنّه القوّة الحيوية ورمز الثراء وارتفاع المقام بينما يكون الاصفرار دليلاً عن الضّعف والانهيار.

المصادروالمراجع:

- مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنتروبولوجيا، منشورات الاختلاف،الجزائر، ط1، 2011.
- محمد الجوهري، علياء شكري، مقدمة في دراسة الأنتروبولوجيا، القاهرة، 2007.
- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ط1، 2004
- جيمس فرايزر، الغصن الذهبي، تر: نايف الخوص، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2014، ص437-443.
- ناصر إبراهيم، الأنتروبولوجيا الثقافية (علم الإنسان الثقافي)، دار صابر، بيروت، ط1، 2001.
- محمد قباري، الأنتروبولوجيا العامة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1998.
- إيجنز بريتشارد، الأناسة المجتمعيّة (ديانة البدائيين في نظريات الأناسيين)، تر: حسن قبيسي، دار الحداثة، ط1، بيروت، 1986
- "إنّ الأم الأولى للعالم كانت تطحن الحنطة بوساطة رحاها اليدوية، ولما انتهت من طحن الحبوب مزجتها بالماء، وفي ساعة متأخرة من الصباح أعدّت العجين ومثّلته على شكل شاة، وبينما كان سخام القدر عالقا بيدها -وهو ما لم تنتبه له- احترق العجين وأصبح مسودّا، ونجم عنه أن اسودّ رأس الشاة، بينما ظلّ بقية الجسد أبيض اللّون. وبعد ذلك وضعت الأم الأولى للعالم تمثال الشاة الذي صنعته من العجين في النخالة المنثورة حول الرحى والتي قامت بعزلها أثناء الطحن، فالتصقت النخالة بجسم الشاة وتحوّلت إلى صوف. وفي صباح اليوم الموالي

أعادت الأم الأولى للعالم مزج الطحين بالماء للحصول على العجين وتصنع به هيئة كبش، وجعلت له قرونا ملتوية لكي لا تكون منتصبة نحو الأعلى ولا تصيب النّاس، وبينما كانت تتهيأ فيها لوضعه في النخالة، سمعت صوت ثغاء يصدر منه وعلمت في الحين بأنّ الحياة دبت فيه لتضعه إلى جانب الشاة الأولى وقد اسودّ لونه. وبعد مرور أيام أخرى قامت الأم الأولى للعالم بتشكيل كبشا آخر ناصع البياض، وأصبح لديها قطيعا صغيرا من الأغنام،..."

- ليو فروبينيوس، أساطير قبائلية في خلق الكون ورؤية العالم، ترجمة: نبيل حويلي، دار الأمل، تيزي وزو، 2021، ص34-35.
- Bronislaw Malinowski, La vie sexuelle des sauvages (Nord-Ouest de la Mélanésie), traduction : S. Jankélévitch, Payot, Paris, 2000, p283.

المحاضرة رقم 13

الأنتروبولوجيا الحقلية:

تشكّل الأنتروبولوجيا في جانبها الميداني التطبيقي فرعا من فروع الأثنولوجيا، إذ يدرس التطبيق العملي للمعلومات والأشكال الثقافية والأساليب الفنّية ويكون ذلك عادة في الشعوب التي تعيش حياة بسيطة ويحتكّ بها الإنسان المتحضّر سواء عن طريق الدّراسة لأغراض علمية أو استعمارية بهدف الاحتلال والسيطرة على تلك الشعوب. ويرى باحث الأنتروبولوجيا "هرسكوفيتز" (Merville Herskovits) أنّ الأنتروبولوجي ولكي يقوم بعمله بأكمل وجه عليه أن يتوجّه إلى موطن شعبه الذي اختاره موضوعا للدراسة، فيستمع إلى أحاديثهم ويزور بيوتهم، ويحضر طقوسهم واحتفالاتهم، ويلاحظ سلوكهم العادي، ويسألهم عن أمور كثيرة، وعن تقاليدهم وعاداتهم ويتآلف مع طريقة حياتهم حتى تصبح لديه فكرة شاملة عن ثقافتهم أو يحلّل جانبا خاصا من جوانبها. فعالم الأنتروبولوجيا في عمله هذا إثنوغرافي وجامع لمعلومات يربطها بأخرى. وفي ذلك جانب علمي تطبيقي.

وتجدر الإشارة إلى أنّه وفي الآونة الأخيرة أدّت الحاجة إلى تقصّي المعلومات في السنوات الأخيرة في دراسة الشعوب ليست البدائية فحسب، بل والشعوب المتعلّمة والمتحضّرة أيضا وفي أماكن مختلفة من العالم. وقبل أن نشرع في رصد أهمّ مراحل الدراسة الميدانية وسيمات الباحث الجامع وكذا طرق الجمع وأساليبه وأنواع المقابلات المُستعان بها في رصد المادة، نحاول إلمام الموضوع بتعريف الميدان وأهم خصائصه.

1. مفهوم الميدان ومقوّماته:

يعتبر العمل الميداني شاقا وهو من من أصعب مراحل جمع ونقل ودراسة المادة الثقافية الشعبيّة لكونها مشتتّة في أذهان النّاس وموزّعة عبر أمصار بعيدة يصعب في الكثير من الحالات بلوغها والوصول إليها. ونعني بالميدان الرقعة الجغرافية التي تسكنها مجموعة بشرية معيّنة، تكوّن فيما بينها وحدة اجتماعية متماسكة منذ أمد بعيد وليست وليدة تجمع حديث، لها خصائصها الثقافية المحليّة، وتتكوّن هذه الخصائص بتأثير البيئة أو المنطقة الجغرافية، ولها نظامها الاجتماعي والقرابي المؤثر في سلوكات الأفراد وعلاقاتهم فيما بينهم وبين غيرهم، ويتجلى ذلك في عاداتهم وتقاليدهم وحرفهم ونشاطاتهم ومهاراتهم وشفوياتهم وطقوسهم وشتى مظاهر حياتهم اليومية.

خصائص الميدان وصفاته:

يشير الباحث "محمّد عيلان" أنّه يُحدّد الميدان بتوفّره على مجموعة من الخصائص الآتية:

1- أن يكون سكانه يكوّنون وحدة اجتماعية متعايشة منذ زمن طويل، وليست نتيجة تجمع ظرفي.

2- أن تكون أداة الاتصال بين عناصر تلك الوحدة لها خاصية الشمول للجميع، يتواصلون بلغة واحدة يفهمها الجميع. وتتميّز هذه اللّغة في أصواتها وحركاتها وإشاراتها المصاحبة لها.

3- تجمع سكان المنطقة قيم مشتركة والّتي تحكم التّعامل اليومي، كالدّين والقرابة وما ينتج عنهما من قيم أخلاقية تكون أساس لبناء اجتماعي متميز، فسكان الميدان تجمعهم قرابة دمويّة منذ سائر السنين.

4- أن تكون الاحتياجات والضروريات اليومية للسّكان متشابهة، وأن يكون توجههم الاقتصادي متقارب فأهل منطقة الميدان تتقارب مهنهم، وحرفهم وأنشطتهم كالزّراعة، والرعي والفلاحة، والتّجارة، والحدادة.

5- وللبيئة أثر في طباعهم وسلوكهم وتصرّفهم، مثلما هو الحال لسكان الجبال والسّهول والمدن ...

6- تشابه مظاهر عيشهم وغذائهم ومسكنهم وخاصة في الأرياف.

2. كيفية جمع المادة الشعبية:

إنّ أوّل ما يجب أن يستقرّ في الأذهان هو أنّ العمل الميداني إنّما يخضع لظروف الميدان نفسه، ومن ثم فليست هناك طريقة واحدة يمكن القول بأنّها الطريقة الصحيحة الوحيدة لمواجهة العمل في الميدان وأقصى ما يمكن أن نذهب إليه هو أن هناك إطارا عاما اتفق الدّارسون على صلاحيته لكي يتسع لأسلوب منظم لا خلاف عليه، بالإضافة إلى خبرة الباحث أو الجامع نفسه من واقع التجربة ذاتها.

إنّ الباحث الجامع هو الأساس الذي تنبني عليه الدراسة الميدانية أو دراسة الفولكلور على العموم، فهو أهم عامل من العوامل التي تتكوّن منها الظاهرة أداءً وجمعا ودراسةً، ولذلك لا بدّ أن تتوافر له مجموعة من المهارات الشخصية والقدرات العلمية وأن يكون على بينة بمهمته ومعرفة ما يريد جمعه، وأهمية ذلك الذي يجمعه بالنسبة للمجتمع الذي يتواصل معه باعتباره جزءً مهما من ثقافته، إنّه مطالب أن يكون على استعداد لإقناع هؤلاء وألا يملّ من الشرح وإعادته في أسلوب يناسب طبيعة الجماعة.

إن قدرة الباحث على التعريف بنفسه والمهمة التي جاء من أجلها أمر في غاية من الأهمية، إذ يتوقف على ذلك قبول النّاس أو رفضهم له ولذلك من المستحسن أن يكون تعريفه بنفسه وبمهمته تعريفا عاما،

يعطيه الفرصة أن يكون أكثر حرية وقدرة على مواجهة الظّروف المختلفة التي قد يواجهها أثناء عمله في الميدان أو لقاءاته مع النّاس، ثم إن معرفة السمات العامة التي تميز المجموعة التي يتعامل الباحث معها مفيدة لذلك. كما أنّها تسيّر له أن يقيم مع بعض أفرادها علاقات طيّبة يمكن أن تسهّل له انجاز مهمّته طالما أن العوامل الشخصية هي التي تتحكّم في الموقف كلّه منذ البداية. وإنّ معايشة النّاس ومشاركتهم أوجه حياتهم أمران لا غنى للباحث الميداني عن أن يضعهما في حسبانه وأن يضعهما نصب عينيه، أن يكون ذلك مدعاة إلى تكوين علاقات إنسانية، ولعلّ هذا يقودنا إلى القول إن العامل النفسي له تأثير كبير، وما يهمنا هنا أن نلفت إليه النّظر هو أن الباحث الميداني معرض لأن يواجه ظروفا كثيرة لا يستطيع أن يعدّ نفسه لمواجهتها سلفا فالأمر، يعتمد على اللّحظة التي يواجه فيها الموقف وعلى أبعاد الموقف وضروراته ومن ثم تختلف ردود الفعل.

وتعدّ الاحتفالات والمناسبات العامة أحد المجالات التي لا بدّ للباحث أن يستثمرها ذلك أنها تشكّل مصدرا مهما من مصادر التعرف على البيئة وعلى النّاس وبل حتى على ثقافتهم. إن مشاركة الباحث للنّاس أمران لا غنى عنهما لأنهما يتيحان له فرصة طبيعية لتحقيق الاتصال مع النّاس والتواصل معهم، وهو السبيل الأوسع لتحقيق أهداف البحث أو على الأقل تحقيق جزء منها. ويحتاج الجامع بالإضافة إلى كل ما أوردناه إلى إدارة الأجهزة المعقّدة التي يستخدمها كما يجب أن يروض نفسه على تقبل كل أنواع الأطعمة والمشروبات التي تقدّم له وتحمّل الاستمرارية عدّة أيّام دون انقطاع ونوم.

كما أنّه من اللازم تحديد معالم الرحلة الميدانية، إذ إن الجمع دون تحديد واضح لما يراد تحقيقه من أهداف ودون تحديد للمشكلة التي يقوم البحث على حلّها يعدّ جهدا لا طائل من ورائه. ومن أجل عمل جاد ومتألّق كان من الضروري الاستعانة ببعض الوسائل والإجراءات اللازمة، ولذلك نستعين بأسلوب الملاحظة الذي يعتمد على الملاحظة في حدّ ذاتها وتسجيل الأقوال وسائر الروايات الأسطورية والحكايات والممارسات والعادات والطّقوس. وأسلوب الملاحظة بالمشاركة هو الأكثر استخداما في الدراسات الميدانية وعلوم الأنتروبولوجيا، لأنّه يوفّر بيانات غزيرة عن الموضوع المراد دراسته، وجمع معلومات كافية عنه، وغالبا ما تكون دقيقة لأنّها تقوم في ظروف طبيعيّة عكس ذلك، نجد الملاحظة العفوية التي لا طالما تكون غير واعية للظاهرة وجزئياتها.

وتجدر الإشارة هنا إلى الاستعانة بوسائل التسجيل السمعيّة والبصرية التي تجمع بين الصوت والصورة، الأمر الذي يساعدنا حتما على ضبط وتسجيل أكبر قدر المادة. ووسائل التسجيل توفّر الدّقة

للملاحظ/الجامع الباحث الذي قد لا يسعفه الوقت لكتابة كل الرّوايات الشفوية وتدوين جميع ملاحظاته. وبعد عملية الجمع الميداني ينتقل إلى تفريغ المادة المسجلة عن طريق الشرائط وكتابتها حسب مراحل ثلاث: التسجيل الخطي الأمين لكلّ ما ورد في التسجيلات الصّوتية، ومحاولة ترجمتها إلى لغة فصيحة تعميماً للفائدة.

ويؤكّد الباحث الجزائري "محمّد عيلان" أنّ عملية صيانة التراث الشعبي تكون بتوفير أماكن حفظه وعرضه، مثل متحف الفنون الشعبية وتعدّد الأرشيفات بالجامعات أو المراكز الثقافية المؤهلة واللقاءات والمهرجانات وذلك بتسجيل شفوي لذلك التراث وتدوينه وحفظه بواسطة أشرطة الفيديو والكاسيت والصّورة وغيرها، ممّا يجعله حيّا للأجيال القادمة. وجمع ونشر الحرف والمهارات والمشغولات اليدوية والصّناعات الشعبية المتنوّعة وتطويرها والحفاظ على خصائصها لما لها من أهمية تاريخية واجتماعية وثقافية وحتى اقتصادية.

3. المبادئ الأساسية التي تتحكّم في الباحث الميداني:

ومن أساسيات إنجاح أي عمل ميداني هو إقامة الباحث في مكان دراسته، يتعايش مع الجماعة ويتكيّف معها، وألا يبدي أي تذمّر من سلوكهم وتصرفاتهم، وكأنّه فرد من أفراد ذلك المجتمع أو عضو من أعضاء تلك القبيلة من القبائل، فبالتالي يسهل على نفسه المأمورية، ويمكن أن ينتقل بين الجماعة بكلّ تلقائية وحرية، الأمر الذي يسمح له الحصول على قدر كبير من المعلومات التي يريدها، وترتبط بالعلاقات التي تحكم الجماعة وعاداتهم وتقاليدهم وقيمهم وأنماط حياتهم، ومن أهم المبادئ التي تتحكّم في الباحث الميداني الأنتروبولوجي ما يلي:

- أن يكون الباحث الميداني (الأثنوغرافي أو الأثنولوجي أو الأنتروبولوجي) على دراية واسعة بخفايا الميدان، وملمّا إلماما تما بالمعلومات الميدانية وشروط البحث الميداني.
- أن يكون الباحث قد حدّد أهدافا علمية واضحة لموضوع بحثه، الأمر الذي يسهل عليه المأمورية في عمله الميداني.
- أن يقيم الباحث داخل الجماعة التي هو بصدد دراستها، ويبتعد عن العالم الخارجي وألا يتّصل بها بصورة تامة، ليكون اهتمامه أكثر وتركيزه أكبر.
- أن يستخدم الباحث أساليب كثيرة في عملية الجمع، وطرائق معيّنة بالإضافة على مناهج الدراسة الميدانية، بما في ذلك الوسائل المساعدة والتي تختلف باختلاف مناسبات الجمع الميداني.

- الاعتماد على التجربة كشكل فرعيّ للمقارنة الميدانية، كونها تسعى لإلى إنشاء اتصال منتظم بين احتمالات عديدة.
- التحلّي بالتجرّد العلمي والذي يتطلّب طرحا قاطعا لكلّ أحكام القيمة، وأن يدرك إدراكا ملحّا بأنّ البحث عن الحقيقة يسبق كلّ شيء، فيقترب من الصواب والمنطق، بعيدا عن القيمية والذاتية.

4. طرق الجمع الميداني:

ومن أجل عمل ميداني دقيق يُشترط على الدارس أو الجامع الميداني الاستعانة بمجموعة من طرق الجمع، ويمن أن نحدّدها كما يأتي:

أ/ طريقة الملاحظة (المشاهدة) المباشرة: (observation)

يستعين الباحث أو الجامع المقيم في مجتمع الدّراسة بأسلوب الملاحظة المباشرة، وتقوم هذه الطريقة على مراقبة أو معاينة أفراد الشعب، الذين تُجرى عليهم الدراسة في أثناء تأدية أعمالهم ونشاطاتهم اليومية بما في ذلك مجموع العادات والتقاليد والأعراف والطقوس التي يُمارسونها، وكذا المناسبات والاحتفالات الدّينية والشعبية، وحلقات الرقص ومراسم التأبين وغيرها ... وعلى الباحث أن يسجّل الحركات والتصرّفات بدقّة شديدة.

وليكون عمل الباحث مثمرا عليه أن يقيم في المجتمع المراد دراسته مدّة تتراوح من سنة واحدة إلى ثلاث سنوات كما حدّدها الباحث الميداني "برونسلاف مالينوفسكي" (Bronislaw Malinowski) في دراسة له قادته إلى جزر المحيط الهادي بعنوان: les Argonautes du Pacifique Occidental كونه على دراية كبيرة بخفايا البحث الميداني، وحدّد غيره فترة الإقامة من 10 أشهر إلى سنة واحدة، ولكن من الأجدر المكوث مدّة أطول من مدة السنة الواحدة، لضرورة مراقبة حياة الأفراد ووصفها وصفا دقيقا، لأنّه هناك من المناسبات ما لا يتمّ في غضون السنة بل تتطلّب أكثر ويمكن أن نمثّل هنا بظاهرتي الخسوف والكسوف.

ولا بدّ من الباحث الجامع أن يحاور النّاس داخل الجماعة، ويحترم خصوصياتهم ويتعلّم لغتهم ليسهل عليه التواصل وتحقيق مبتغاه، كما عليه أن يدرك رموز التواصل التي تعتمد على الحركات الفعلية دون القولية منها. والإقامة وسط الجماعة تعني مراقبة دقائق الأمور في الحياة اليومية السارية بين أفراد الجماعة. وأخيرا يستعين الباحث في هذه الطريقة بقدر كبير من الاهتمام والوعي متحرّيا الموضوعية والاعتدال والصدق في نقل المعلومات والأمانة العلمية بعيدا عن القيمية والذّاتية.

ب/ طريقة المشاركة: (participation)

ونعني بهذه الطريقة مشاركة الباحث أو الجامع في الأعمال والنشاطات التي تقوم بها الجماعة التي يكون بصدد دراستها، والباحث بهذا يكون قريبا من الجماعة ويكسب ثقتها وودّها، وتستقبله بصدر رحب، وبالتالي سيتمكّن من رصد أدقّ التفاصيل أثناء الممارسات اليومية أو الدّينية أو احتفالات موسمية أخرى. وإنّ طريقة المشاركة تقدّم للباحث معلومات جاهزة دون تحويرٍ أو إتلافٍ لأنّها جاءت مباشرة، وتمدّ الباحث باستبصار لازم لتصميم الاستمارات والاختبارات السيكولوجية، كما تبدو هذه الطريقة مهمّة جدا لاختيار المعلومات الحقلية اللازمة لتقييم المادة التي تمّ جمعها. ونخلص في الأخير إلى أنّ هذه الطريقة هي بمثابة معايشة حيّة للجماعة المدروسة، تُكسب الباحث مهارة عالية في أداء عمله وقدرة كبيرة على كتابة تجربته الشخصية فيها وممارسته لها.

ج/ طريقة الاستمارة أو الاستبانة: (le questionnaire)

تعدّ طريقة الاستمارة من أقدم الطرائق البحثية تداولا بين الباحثين على مستوى العالم، خاصة منها تلك الدّراسات السطحية والمسحية، ولعلّ بوادر إعداد استمارة شاملة تغطي جوانب الثقافة المادية وغير المادية جاءت على إثر إدّعاء الباحثين بأنّ ثقافات الشعوب البدائية جميعها مهدّدة بالزوال، لذلك كان لزاما على الباحثين رصد أكبر عدد من المعلومات لطالما لا تزال هذه الشعوب والجماعات المعتمد عليها للدراسة الميدانية موجودة. وتهدف هذه الطريقة إلى جمع الكثير من الوقائع عكس المعلومات التي تكون نوعا ما ضئيلة مقارنة بالطريقتين السابقتين. وتساعد هذه الطريقة الباحث الميداني في التحقّق من النقاط التي يكون قد أهملها لسبب من الأسباب. وتعتمد العلوم الاجتماعية عليها أكثر من العلوم الأخرى. ومن الطرق الشائعة المستخدمة أن يوزّع الباحث في المجتمعات المتقدّمة استمارات على الأفراد المنتمين إلى الجماعة المراد دراستها، ويجيب كلّ فرد منهم بطريقته الخاصة، غير أنّ هذه الطريقة لا تُستعمل عند دراسة المجتمعات البدائية لأنّ أغلب أفرادها لا يتقنون الكتابة، فبالتالي يمكن للباحث أن يقوم بطرح الأسئلة شفويا ويتكفّل هو نفسه بتدوين الإجابة على الورقة، وعنا ربّما قد يضيع الكثير من الملاحظات التي قد يغفل عنها الباحث.

د/ طريقة الحالة الفرضية: (Cas d'hypothèse)

من الأسس التي تُبنى عليها هذه الطريقة بناء فراضيات حول ظاهرة اجتماعية أو ثقافية تخصّ المجتمع الذي ينوي الباحث دراسته، ومع مرور الوقت يسعى البحث إلى إثباتها أو التحقّق منها، ويضع الباحث

الفرضيات من أجل الاختبار والتقصّي والفحص، وأيضا محاولة منه تفسير العلاقات بين المتغيّرات، وهي لا تُبنى على تفسير عشوائي، وإنّما نتاج تفكير الباحث المتعمّق فيما يتعلّق بالعوامل المستقلّة والمتغيّرة للظاهرة محل البحث. ونعني بها اقتراح يتضمّن علاقة بين متغيرين لهما دلالة، ويقوم الباحث بتجميع الوقائع، ثمّ عملية تفسير والخروج بدلالات لتحقيق معرفة أو نظرية أو وكما يشير إليها "فان دالين" على إنّها تفسير محتمل يعبّر عن الظروف والعوامل التي يسعى الباحث لفهمها، وتُستخدم الفرضيات لأهميتها القصوى :

- كونها تساهم في الوصول لقوانين أو نظريات جديدة، ومن ثمّ إثراء المعرفة والتوصّل إلى نتائج.
- تساعد الباحث في تحديد نوعية المعلومات التي ينبغي عليه جمعها.
- تساعد في تحديد الباحث لطبيعة المناهج العلمية المستخدمة وكل الأدوات التي تُناسب موضوع البحث.

5. عملية المعاينة و أنواع المقابلات:

تعدّ عملية المعاينة مرحلة مهمّة في اختيار عنصر من العناصر التي تمثّل كلّا متكاملا من المادة الخام التي تشكّل المدوّنة، وتتطلّب عملية المعاينة توافر عنصر الخبرة والتجربة في عملية اختيار الجزء أو الأجزاء المراد دراستها، حيث تكون النتائج دقيقة ومرضية تسمى طريقة الاختيار في الأنتروبولوجيا الحقلية وثمّة طريقتان:

الأولى عشوائية: لا تُستخدم إلا نادرا لأنها تقدّم معلومات خاطئة وبالتالي نتائج غير دقيقة، ولكونها أيضا مبنية على الصدفة ولا تكون مطابقة للواقع.

أمّا الثانية فهي منتظمة: وهي الطّريقة المناسبة كونها تعتمد على عناصر وراحل متلاحمة ومتكاملة تضمن للجامع الميداني نتائج أكثر دقّة وأقرب للواقع، وتمتاز بجملة من الخصائص الإيجابية كالبساطة والسهولة في الانجاز وقلّة الأخطاء.

المقابلة و أنواعها: تعتبر المقابلة العامل الرّئيس في تشكيل المادة الخام للمدونة خاصة في مجال الشفويات، ونعني بها تلك المخصّصة للدراسة العلمية حيث تختلف اختلافا جزئيا عن الحوارات اليومية وتكون الأسئلة وسيلة للتواصل وهي على أنواع:

المقابلة الفردية: وتسمّى أيضا الحرّة، وتعتمد هذه المقابلة على إعطاء الفرد المفحوص حرّية واسعة لتقديم ما لديه من معلومات تخدم الموضوع المراد تناوله، ولكنّها تقدّ أيضا فرصة للهروب أمام بعض الأسئلة المحرجة.

المقابلة الجماعية: وتهدف هذه المقابلة إلى إراحة الفرد المفحوص نفسيّا والكشف عن جوانب قد لا تكون المقابلة الفردية قد تطرّقت إليها، وهي تعتمد على تعدّد الإجابات حول مجموعة من الأسئلة لموضوع واحد كما تمنع هروب الشخوص من الأسئلة وبالتالي من جوهر الموضوع.

المقابلة المقنّنة: تعتمد هذه المقابلة على مجموعة من الأسئلة الموجّهة للفرد المفحوص، ويقتصر عمل الباحث فيها وضع ملاحظات دقيقة ويسجّل كلّ صغيرة وكبيرة ويكون المختبَر تحت حتمية الإجابة وعدم التهرّب من الأسئلة الموجهة إليه.

إحالات المحاضرة:

1. جزء من المعلومات متحصل عليها من: "منهج الباحث الميداني"، تجربة ميدانية لجمع التراث الشعبي المروي والمادي، من إعداد: "محمد عليان، أستاذ التعليم العالي في الآداب والفنون الشعبية، بجامعة عنابة، ص3-4.
2. إيمان مهران، الفنون الشعبية (دليل الجمع والتوثيق)، الجزء1 و2، مؤسسة النيل الحضارية، القاهرة، 2014.
3. محمّد الخطيب، الأثنولوجيا (دراسة عن المجتمعات البدائية)، دار علاء الدّين، دمشق، ط2، 2009
4. إيجنز بريتشارد، الأناسة المجتمعيّة، تر: حسن قبيسي، دار الحداثة ، ط1، بيروت، 1986
5. عيسى الشماس، مدخل على علم الإنسان، اتّحاد كتّاب العرب، دمشق، ط1، 2004، ص128-132.
6. عزّام أبو الحمام المطوّع، الفولكلور التّراث الشّعبي (الموضوعات، الأساليب، المناهج)، دار أسامة للنّشر والتّوزيع، ط1، عمّان، 2007
7. محمّد عيلان، محاضرات في الأدب الشعبي الجزائري، دار العلوم، عنابة، الجزء الأوّل، 2013.

المحاضرة رقم 14

الأنتروبولوجيا البنيوية والأنتروبولوجيا التأويلية

1. الأنتروبولوجيا البنيوية:

يعتبر الفيلسوف وعالم الأنتروبولوجيا الفرنسي "كلود ليفي ستروس" (Claude Levi Strauss) رائد الأنتروبولوجيا البنيوية وهو صاحب دراسة طويلة تحمل عنوان: L'anthropologie structurale أو "الأنتروبولوجيا البنيوية". وتقوم نظريته على اعتبار النموذج اللّغوي أساسا لفهم الثقافات الإنسانية والعقل الإنساني. فتعامل مع مفهوم الفونيم والتميز الأساسي الذي يجريه علماء اللسان بين المستوى الصوتي أو المادي للغة ومستواها الفونيمي أو النظامي. وقد استمد مفهوم البنية من حقل اللغة ومن أعمال فرديناند دي سوسير التي تركز على اللغة كنسق نحوي شكلي يتكون من بنيات (كلمات وجمل) وهذا التناسق هو الذي يحدد المعنى. وكان قد تأثّر بعالم اللّسانيات الدانمركي "ياكبسون" الذي عُني بردّ الفونيمات إلى سيمات مميّزة مادية وصلبة نسبيا. وما استوقف "كلود ليفي ستروس" هو مبدأ الفونيم، ومبدأ التقابل المحض بين دواليل لا حصر لها وإمكانية تحليل هذه الدواليل المتقابلة إلى تقابلات ثنائية تشكّل أساسا لها وتكون خارج وعي الذات تماما.

ومن جهة أخرى تحليل البنيوية إلى وجود بنيات تتحكّم في العلاقات والظواهر الاجتماعية، وكانت جلّ أعمال "ليفي ستروس" منصبّة على المجتمع وظواهره خاصة تلك المجتمعات البسيطة وظواهرها كأنماط القرابة والأساطير وغيرهما ... فحسب ليفي ستروس هناك بنيات أساسية تتحكم في نظم المجتمع، فإذا كانت مختلف النظم والأجزاء المجتمعية بالنسبة للأنتروبولوجيين هي البنيات الأساسية المتحكمة في المجتمع، فإنّ هذه البنيات حسبه تخفي خلفها البنيات الحقيقية المتحكمة في الواقع الاجتماعي، لكن البنية الأساسية حسبه والتي تتخفى خلف هذه البنيات هي بنية العقل الإنساني كبنية نهائية لا شعورية، وإذا كان الضمير الجمعي عند "دوركايم" واللاشعور عند النفساني "سيغموند فرويد" هو المتحكم في الظواهر الاجتماعية والإنسانية فإنّ بنية العقل وتركيبته هي المتحكمة في مختلف أنماط التفكير ونظم القرابة والدين وغيرها لدى "كلود ليفي ستروس".

وحاول "ليفي ستروس" تطبيق هذا المبدأ على الأسطورة والتي جعلها ميدانه الخصب والمفضّل للدّراسة حيث اقترح تحليل الأساطير إلى وحدات أساسية خالية من المعنى أطلق عليها اسم الأسطوريمات لأنّه

يعتقد فيما وجده في الفونيم أنّه وحدة لا معنى لها بحدّ ذاتها. لكنّها ما إن تدخل في علاقة مع وحدة أخرى من النوع ذاته حتّى تشكّل بنى ذات معنى. وتقوم هذه البنى على مجموعة من التقابلات الثنائية والمحورية نجدها في اللاوعي البشري. ومثّل "ليفي ستروس" بالمجتمع المبني على تابو الزنا بالمحارم، أي على محاولة تحظير الجنس ضمن العائلة، ممّا يدفع بالرّجال إلى تبادل النساء من عائلة على أخرى بغية الزواج، وهذا ما يخلق بنية اجتماعية إجمالية أكبر من العائلة النووية، وحسبه تشتمل المجتمعات على ثلاثة أشكال للتبادل، تجمع المجتمع معا وتؤمن تماسكه وهي على هذا النحو:

الشكل الأوّل وهو تبادل الهبات الذي يناظر البنية الاقتصادية في مجتمع أشد تعقيدا.

أمّا الشكل الثاني فهو تبادل النساء تبعا لقواعد بالغة التعقيد والتكلف تخلق بنية قرابية.

وأخيرا الشكل الثالث: هو تبادل الرسائل الكلامية والصوتية عبر اللغة، الذي يخلق معظم ثقافة المجتمع، التي هي في أعمال "ليفي ستروس" اللاحقة عبارة عن بني رمزية، أو نظام من الأدلّة.

إذن اهتمّ "ليفي ستروس" بموضوع معرفة وفهم الإنسان عبر الزمن والمكان متقيّدا بمبادئ البنيوية الفرنسية وبعيدا عن تلك البنيوية الوظيفية البريطانية، واقترن فكره بالفلسفة وما الأثنولوجيا والأنتروبولوجيا إلا منعطفا لا بدّ منهما العودة إلى أطر الفلسفة والتفكير حول الإنسان، فغايته هي اكتشاف الحقائق المرتبطة بالذهن البشري فأساس تفكيره يقوم على أنّ ما وراء العقلي، وما وراء التنظيم المجتمعي، وممارسات المجتمعات وأنماط معيشها، وما وراء قواعدها التي تختلف باختلاف الأمكنة، ونجده مشتركات تجمع بين الإنسان وغيره مهما كان أصله أو كانت ثقافته، وأن هذا المشترك هو اللاوعي الجماعي للذهن البشري، وهو لا وعي يتغذّى بالصّور نفسها، والرموز نفسها، والحواجز نفسها. فالتفسير والحالة هذه أقرب إلى التفسيري منه إلى التفسير الاجتماعي. إنّه يكمن في النفسانيّات الجماعيّة للجماعة. كما طبّق معطيات الألسنيات على الأنتروبولوجيا مثل التضادات (كلام/لغة) و(مرسل/شفرة) فالأنتروبولوجيا نصاب الحدث أي التاريخ بنصاب البنية السيستام المضمر، فهكذا يكون للمنهج الألسني أن يطبّق على الأنتروبولوجيا، وخاصة على البنى القرابيّة وعلى الأساطير، التي تمثّل مجاله الخصب المناسب للدّراسة. فهناك تقابلا بين أصوات وتسميات درجة القرابة عن طريق استخدام أزواج تضاديّة مثل أب/ابن، أخ/أخت، زوج/زوجة، خال/ عمّ، فالبنية تشتغل على مستوى الأزواج والأضداد لا على مستوى الألفاظ. ويبدو من هنا النظام القرابي بمثابة كلام، ومجموعة من العمليات التي تهدف إلى تحقيق نمط معيّن من الاتصال بين الأفراد وبين الجماعات.

نموذج تطبيقي: -أسطورة البقعات الموجودة على سطح القمر-

وسنحاول تطبيق أسس البنيوية التي جاء بها "كلود ليفي ستروس" على نص أسطوري قبائلي يتمثّل في "البقعات الموجودة فوق سطح القمر ونحاول مقارنته بنصّ أسطور آخر من حيز جغرافي يتمثّل في شمال إفريقيا جمعه "محمّد أوسوس".

النّص الأول: "يحكى أنه في زمن مضى كان هناك طفل يتيم الأبوين، وكان هائما في الأرض، يسير وحيدا حزينا لا أحد يكترث له ولكربه الذي يتواصل ليل نهار أو حتّى أن يأبه لكآبته وحزنه الشديدين. ولكنّه وعلى الرّغم من بؤسه لم يكن بوسعه البكاء إذ إن الدموع لم تكن تُعرف حينئذ، ولما أبصره القمر من السماء المظلمة وهو على حاله الحزينة، أشفق عليه، وفي منتصف الليل تقريبا نزل من عليائه إلى أن اقترب من الأرض ويلامسها ويخاطب الطّفل قائلا: "ابك أيّها الولد اليتيم، لكن لا تدع دموعك تسقط على الأرض لتوسّخها، فتدنّسها، لأنها تغذي البشر جميعا، فهم يقتاتون من زرعها وثمارها وبقولها، أُترك دموعك تسقط عليّ، فسأحملها معي إلى علياء السماوات"، وهكذا بكى الطّفل، وابتدع أولى الدموع في العالم والتي سقطت على وجه القمر فتحوّلت إلى بقع سوداء لازمته منذ تلك الواقعة. وبعد أن دمعت عينا الطّفل ودّعه القمر قائلا: "لقد جعلتك تبكي على سطحي، وها أنا أباركك الآن فاذهب فإنّ الناس سيحبونك ويحمونك، ولن يدعوك وحدك وبعد ذلك صار الطفل سعيدا، وصار الناس جميعا يحبونه فعلا، ويشعرونه بالعطف، ويغمرونه بالحنان، ويمدونه بكل ما يطلب".

النّص الثاني :

تقول الأسطورة: في بداية الكون كانت الأحجار ليّنة، لأنها كانت في أصلها خبزا جاهزا في متناول الناس الذين كانوا يلتقطون الطّعام دون أن يعملوا وكانوا لا يزرعون ولا يحصدون وهم بذلك يتحصلون على الأكل دون عناء. غير أن امرأة كانت حاملة رضيعها خلال حضورها حفلة (أحواش) ذات ليلة صيفيّة مقمرة، حيث كان القمر حينها لا يزال ناصعا لا تشويه أيّة لطخة سوداء، فتبرز المولود في حجرها، فلم تجد حولها ما تمسح به برازه سوى قطعة من الخبز التقطتها من الأرض حيث كان الخبز متناثرا كما هو حال الحجارة الآن، قبل أن يتصلّب وعقابا لها أصابتها لعنة سماوية قذفت بها هي ورضيعها نحو القمر، فضجّ النّاس للموقف، وكفّ الرجال عن الرقص لما رأوا الجرم السماوي يشحب، ويتلطّخ ببقعة سوداء، ذلك أن الأم ورضيعها ثبتا على وجهه، وتحوّلا إلى بقعته الداكنة تشهيرا لهما لتدنيسهما الخبز، ومنذئذ

قست الحجارة، ولم تعد خبزا، أو بالأحرى صار الخبز حجارة تنبتها الأرض، وصار الإنسان مضطرا إلى أن يزرع الأرض ويفلحها ليجني محصولا بعناء كبير بعد أن كان يكتفي بالانحناء لالتقاط الخبز من الأرض".

التقابلات المحورية والثنائية :

نحن أمام نصّين أسطوريين يفسّران بالدّرجة الأولى كيفية ظهور البقعات على سطح القمر، ويتوافق النصين على أن البقعات لم تكن موجودة من قبل، ولذا يمكن لنا استخلاص ما يلي:

النّص الأوّل :	التقابل	النص الثاني :
طفل يتيم الأبوين	≠	أم وابنها ينتميان إلى جماعة بشرية
أجواء حزينة	≠	أجواء احتفالية
الحرص على عدم إسقاط الدموع على الأرض	≠	مسح براز الطّفل بالخبز
نزول القمر ليحمل دموع الطفل اليتيم	≠	صعود المرأة وابنها إلى القمر وثبوتهما عليه
مكافأة الطفل اليتيم	≠	معاقبة الأم وابنها
اندماج واعتراف من الجماعة	≠	إقصاء ونفي من الجماعة
تقديس الأرض	≠	تدنيس الأرض

الأنتروبولوجيا التأويلية:

يقود هذه المدرسة "كليفورد غيرتز" (Clifford Geertz) ويُعتبر مؤسّس المدرسة التأويلية في الأنتروبولوجيا والتي تهتمّ بدراسة الرموز في الثقافات وتحليلها ودراسة أنساقها، لكون الرموز تضفي معنى ونظاما لدى الإنسان. وأنجز العديد من البحوث الميدانية في جافة بإندونيسيا حول موضوع الدّين وأصدر كتابا بعنوان: the religion of Java وأبحاثا أخرى قادته إلى المغرب ترتكز على الإسلام وتأويلاته، ولعلّ من أهمّ الدّراسات التي ألّفها "تأويل الثقافات"، وهو الكتاب الذي جعل النظرية الأنتروبولوجية التأويلية تنال أهمية قصوى في عالم الفكر وحقل الأنتروبولوجيا.

واتّخذ من وجهة نظر الأنتروبولوجية الرمزية منهجا للدّراسة والتحليل، ويرى أنّ الإنسان حيوان عالق في شبكات رمزية وتحليلها ينبغي أن يكون علما تأويليا يبحث عن المعنى. ويوضّح نظريته الأنتروبولوجية التأويلية بأمثلة كثيرة محاولا التمييز بين ما هو بسيط وما هو معنى باطن عميق، وقدّم أمثلة كثيرة يحاول من خلالها أن يقرّب نظرياته الإيحائية التأويلية في الدّراسات الأنتروبولوجية. ومن الأمثلة التي ساقها: الغمز الذي يتمّ عن طريق العين، وافترض أنّه ثمة ولدين كلّ منهما يرف عينه اليمنى بسرعة: الأوّل كانت رفة عينه اختلاجة طبيعيّة لا إرادية أو مقصودة، بينما الولد الثاني يغمز بعينه لزميل له غمزة ماكرة، وإذا تأمّلنا في الحركتين نجدهما متماثلتين من حيث المظهر ومن الصعب التفريق بينهما، إلا أنّه ثمّة فرق بينهما فالغامز بغمزته يقوم بعمل تواصلي موصول، وهو يقوم بطريقة محدّدة وخاصة. فالغمزة عمل متعمّد موجّه إلى شخص محدّد ويبعث برسالة خاصة ومتعارف عليه اجتماعيا، ويتمّ وراء ظهر الأشخاص الموجودين. والملاحظ أنّ الفتى الأوّل قام بعمليتين إذ رف جفنه وغمز، بينما لم يقم الفتى الثاني سوى بعمل واحد هو رفة الجفن. والنتيجة أنّنا أمام جزئية سلوكية زائد ذرة ثقافية ليصبح لدينا إيماءة.

يقول "كليفورد غيرتز": "كما يحصل في تمارين القراءة المركّزة المألوفة لدينا، يمكن للمرء أن يبدأ في أي مكان من مخزون الأشكال في ثقافة ما وينتهي في أي مكان آخر. ويمكن للمرء أن يبقى ضمن شكل واحد، محدود الثقافة نوعا ما، ويأخذ في الدوران في داخله باستمرار. كما يمكن له أن يتحرك بين الأشكال بحثا عن أشكال أوسع من الوحدة أو عن تناقضات ذات مغزى. كما يمكن للمرء حتّى أن يقارن بين أشكال من تراثات مختلفة ليحدّد طبيعتها بما يبرز كالا منها بشكل تبادليّ. ولكن أيّا كان المستوى الذي يعمل فيه المرء، ومهما كانت درجة التعقيد، فإنّ المبدأ الدليل يبقى هو ذاته :إنّ المجتمعات كما الحياة، تحوي تأويلاتها الخاصة، وما على المرء إلا أن يتعلّم كيفية الوصول إليها". يؤكّد "كليفورد غيرتز" من خلال هذا الاستشهاد أنّ كلّ المجتمعات تمتلك تأويلات خاصة بها ولكنّه على المرء أن يتعلّم كيف يصل إلى تأويلها وتفسيرها، ويقدّم أمثلة أخرى عمّا يسمّيه بالتوصيف الكثيف لأنّ المعنى العميق يصعب التوصّل إليه بما يحمله من دلالات رمزية مكثّفة، ومن الأمثلة الأخرى التي سايرها في دراساته التأويلية حكايات جمعها من أنحاء مختلفة من العالم، مثل القصّة الهندية التي تروي عن رجل إنجليزي أصابه الفضول سمع من أحد الهنود أنّ العالم يرتكز على منصّة ترتكز على فيل، ويرتكز هو الآخر على ظهر سلحفاة. ولمّا سأل الرّجل الانجليزي محدّثه قائلا: عمّا ترتكز تلك السلحفاة، فأجابه أنّها ترتكز على سلحفاة أخرى، وواصل أسئلته عمّا ترتكز تلك السلحفاة الأخرى، فعلم من الرجل الهندي بأنّه من هناك توجد سلاحف طوال الطريق نزولا إلى غاية آخرها وهكذا ...

قائمة المصادر والمراجع:

- ليو فروبينيوس، أساطير قبائلية في خلق الكون وتصوّر العالم، ترجمة: نبيل حويلي، دار الأمل، تيزي وزو، 2021
- جاك لومبار، مدخل إلى الأثنولوجيا، ترجمة: حسين قبيسي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1997.
- إيجنز بريتشارد، الأناسة المجتمعيّة، تر: حسن قبيسي، دار الحداثة للطّباعة والنّشر، ط1، بيروت، 1986.
- كلود ليفي ستروس، الأناسة البنيوية، تر: حسين قبيسي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1995.
- كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ترجمة: محمد بدوي، منشورات المنظّمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009.

الخاتمة:

نصل إلى ختام محاضراتنا التي جاءت تحت عنوان محاضرات في الأنتروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، وسعينا من خلالها إلى إحاطة الموضوع من كلّ جوانبه ولا ندّعي أنّنا أحطنا الدروس بشكل متكامل بل نحن بعيدون عن استجماع كل المعلومات والمصادر والوثائق التي ترتبط بالدّراسات الأنتروبولوجية، وتجدر الإشارة إلى أنّنا حوّرنا بعض العناوين بما يتلاءم مع برنامج الأنتروبولوجيا ومدى ارتباطها بالحقل الأدبي. وخلصنا إلى مجموعة من النتائج ولعلّ أبرزها :

- تقوم الأنتروبولوجيا كعلم قائم بذاته، إذ تدرس الإنسان في ذاته ولذاته، وإن كانت الدّراسات السابقة تنطوي على الشعوب البدائية فقط، فإنّ الدّراسات المعاصرة تجمع في تناولها للموضوعات الشعوب البدائية والمتحضّرة منها، علاوة على أنّها تدرس الإنسان في مراحل مختلفة من تاريخه البشري على سطح الأرض وكذا الرّغبة في البحث عن اللّغات والعادات والتقاليد الغريبة، وبعدها توسّع نطاق الدّراسات الأنتروبولوجية ليشتمل جزءً من المجتمعات الحالية.
- تعتبر الأنتروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة، البيوفيزيائية والاجتماعية والثقافية علما شاملا يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض، اختلاف علم التشريح عن تاريخ تطوّر الجنس البشري والجماعات العرقية، وعن دراسة النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية وقرابية ودينية وقانونية، ... وكذلك عن الإبداع الإنساني في مجالات الثقافة المتنوّعة التي تشمل التراث الفكري وأنماط القيم وأنساق المجتمعات الإنسانية المختلفة
- تقوم الأنتروبولوجيا بتصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية، وهذا بعد دراستها دراسة واقعية للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، وحسب الترتيب التطوّري والحضاري للإنسان عبر مراحل معيّنة ابتداءً من كونه بدائيا إلى أن وصل إلى ما عليه حاليا.
- تحدّد الأنتروبولوجيا أصول التغيير الذي يحدث للإنسان وأسباب هذا التغيّر وعملياته بطريقة علمية دقيقة، ويكون ذلك عن طريق الرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر فالمستقبل من خلال دراسة مقارنة. وهو الأمر الذي ينتج عنه مؤشّرات وتوقّعات التغيّر المحتمل في الظواهر الإنسانية بغية التنبّؤ بمستقبل المجتمع الإنساني والجماعات البشرية التي أُجريت عليها الدّراسات وعاينتها.

- لقد اختلفت المصادر والمراجع حول نشأة الأنتروبولوجيا، وإذا قيّدنا أنفسنا بهذا العلم كفرع من فروع المعرفة، يمكن للبعض أن يتعقبه بالعودة إلى عصر التنوير الأوروبي خلال القرن الثامن عشر، مع أنّ الإرهاصات الأولى كانت مع المصريين القدماء والإغريق والصينيين والرومان والعرب.
- تهتمّ الأنتروبولوجيا بدراسة الظواهر المجتمعية انطلاقا من المجتمعات الصغيرة وصولا إلى المجتمعات الكبيرة، ومتابعة مراحل تطوّرها وما نال منها من تغيّرات وإيجاد القواسم المشتركة فيما بينها بعيدا عن التطرّف والتعصّب والأحكام المسبّقة التي تحكمها أيّة أصول علمية.
- تجمع الأنتروبولوجيا علاقات بالعلوم الأخرى، ونخصّ بالذّكر علاقة الأنتروبولوجيا بعلم النفس، وعلاقتها بعلم الأحياء (البيولوجيا) وعلاقتها بعلم الاجتماع، وبالجيولوجيا والجغرافيا وبعلم الفلسفة وغيرها من العلوم ...
- تعتبر الأنتروبولوجيا (علم الأناسة) المرحلة الثالثة والأخيرة من العمل الميداني إذ تأتي بعد المرحلة الأولى الأثنوغرافيا (علم الناسوث) والمرحلة الثانية الأثنولوجيا (علم النياسة).

قائمة المصادروالمراجع :

1/ المراجع باللّغة العربية:

1. أحمد الخشاب، دراسات أنتروبولوجية، دار المعارف، ط2، القاهرة، 2009.
2. أحمد مهدي رياح، محاضرات في الأنتروبولوجيا الطّبيعية، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم الأنتروبولوجيا التطبيقية، بغداد.
3. أحمد أبو زيد، محاضرات في الأنتروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، 1997.
4. إيمان مهران، الفنون الشعبية (دليل الجمع والتوثيق)، الجزء1 و2، مؤسسة النيل الحضارية، القاهرة، 2014.
5. جميل حمداوي، الأنتروبولوجيا الثقافية –أنتروبولوجيا الطّقوس والشعائر الدّينية، دار الريف للطّبع والنشر الإلكتروني، الناطور، المغرب، ط1، 2020
6. جميل حمداوي، الأنتروبولوجيا الثقافية بين النظرية والتطبيق، ناشرون، بيروت، ط2، 2018.
7. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الأنتروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي للحديث (جامعة أسيوط)، الإسكندرية، ط2، دت.
8. سامية جابر، علم الإنسان، مدخل إلى الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، دار العلوم، بيروت، ط2، 1998.
9. عزّام أبو الحمام المطوّع، الفولكلور التّراث الشّعبي (الموضوعات، الأساليب، المناهج)، دار أسامة للنّشر والتّوزيع، ط1، عمّان، 2007.
10. عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، منشورات إتّحاد كتّاب العرب، دمشق، ط1، 2004.
11. عيسى محمد طلعت، مدخل إلى علم الاجتماع، دار المعارف، بيروت، ط1، 1986.
12. فراس السواح، الأسطورة والمعنى: دراسة في الميثولوجيا والديانات المشرقية، دار علاء الدين، دمشق، 1997.
13. فراس السواح، مغامرات العقل الأولى، دار الكلمة للنشر، ط1 ، بيروت، 1980.
14. قباري إسماعيل، أصول الأنتروبولوجي العامة، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط4، 1998.
15. محمد الجوهري، علياء شكري، مقدمة في دراسة الأنتروبولوجيا، القاهرة، 2007.
16. محمد الخطيب، الأثنولوجيا، -دراسة عن المجتمعات البدائية-، دار علاء الدين، دمشق، ط2، 2010.
17. محمّد عيلان، محاضرات في الأدب الشعبي الجزائري، دار العلوم، عنابة، الجزء الأوّل، 2013.
18. مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنتروبولوجيا، منشورات الاختلاف،الجزائر، ط1، 2011.
19. ناصر إبراهيم، الأنتروبولوجيا الثقافية (علم الإنسان الثقافي)، دار صابر، بيروت، ط1، 2001.
20. نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب، القاهرة، دت
21. نبيلة إبراهيم، الدّراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 1994.
22. نخبة من أعضاء هيئة التدريس، تح: محمّد عباس إبراهيم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2009 .

2/ المراجع المترجمة :

1. ألكسندر هايدل، سفر التكوين البابلي/قصّة الخليقة (ملحمة حينما في الأعالي)، تر: سعيد الغانمي، منشورات الجمل، كولونيا/ألمانيا، بغداد، ط 1، 2007
2. إيجنز بريتشارد، الأناسة المجتمعيّة، تر: حسن قبيسي، دار الحداثة للطّباعة والنّشر، ط1، بيروت، 1986.
3. إيريتش فروم، كينونة الإنسان، ترجمة: محمّد حبيب، دار الحوار للنّشر، اللاذقية، ط1، 2013.
4. إيريتش فروم، اللغة المنسية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، دار الحوار للنّشر، اللاذقية، ط1، 2014.
5. توماس هايلاند إيركسون وفين سيفرت نيلسون، تاريخ النظرية الأنتروبولوجية، تر: لاهاي عبد الحسين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.
6. جاك لومبار، مدخل إلى الأثنولوجيا، ترجمة: حسين قبيسي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1997.
7. جيامبيترو جوبو، إجراء البحث الأثنوغرافي، ترجمة: محمد رشدي، مراجعة: أحمد زايد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014.
8. جيمس فرايزر، الغصن الذهبي (دراسة في السّحر والدّين)، تر: نايف الخوص، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2014
9. رالف لينتون، الأنتروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة: عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط1، 1967.
10. ريتشارد دورسون، نظريات الفولكلور المعاصرة، ترجمة: محمّد الجوهري وحسن الشامي، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، ط3، 1993.
11. كريستوف فولف، علم الأناسة: التاريخ والثقافة والفلسفة، ترجمة: أبو عريب المرزوقي، دار المتوسطة للنشر، أبو ظبي، الإمارات العربية المتّحدة، ط1، 2009.
12. كلود لفي ستراوس، الإناسة البنيانية، تر: حسن قبيسي، المركز الثّقافي العربي، ط1، بيروت، 1995.
13. كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ترجمة: محمد بدوي، منشورات المنظّمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009.
14. ليو فروبينيوس، أساطير قبائلية في خلق الكون وتصوّر العالم، تر: نبيل حويلي، دار الأمل، تيزي وزو، 2020.
15. ماكس شابيرو ورودا هندريكس، معجم الأساطير، تر: حنا عبود، دار علاء الدّين، دمشق، ط3، 2008.
16. مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، تر: نهاد خياطة، دار كنعان، دمشق، 1991.
17. نيكولا جورنه، بين الكوني والخصوصي (البحث عن البدايات-طبيعة الثقافة-تشييد الهويات)، تر: إياس حسن، دار الفرقد للطّباعة والنّشر والتوزيع، دمشق، ط2، 2014

3/ المراجع باللغة الأجنبية :

1. A. Hanoteaux et A. Leterneux, Les coutumes Kabyles, Chalamel, Paris, 1869
2. Bronislaw Malinowski, La vie sexuelle des sauvages (Nord-Ouest de la Mélanésie), traduction : S. Jankélévitch, Payot, Paris, 2000
3. Bruno Bettelheim, psychanalyse des contes de fées, Ed : Pocket, Paris, 1996.
4. Claude Levi Strauss, le pensée sauvage, Ed : Pocket, 3eme édition, Paris, 1985

5. Gilbert Durand, Figures mythiques et visages de l'œuvre, Berg international, Paris, 1979.
6. Henri Genevois, Village de Kabylie, Tome : 1, Enag, Alger, 1995
7. Jean Copans, Introduction à l'Ethnologie et à l'Anthropologie, Nathan, Paris, 1996.
8. Jean Copans, L'enquête Ethnologique De Terrain, Paris, Nathan, 1998
9. Jean Cuisenier, Ethnologie de l'Europe, Paris, PUF, 2007.
10. Le dictionnaire de Larousse/Dictionnaire de la langue française/lexis, Librairie Larousse, Paris, 1989.
11. Le dictionnaire encyclopédique illustré de la langue française, Ed : Carrefour/ SEU, Paris, 1995.
12. Leo Frobenius, Contes Kabyles, Tr: Mokran Fetta, Tome: 1, Edi sud, Aix en Provenance, France, 1995
13. Lucien Lévy bruhl, la mentalité primitive, Ed : Presses universitaires de France, 5eme édition, Paris, 1967.
14. Melville Herskovits, Les bases de l'anthropologie culturelle, Maspero, Paris, 1967.
15. Philippe Descola, L'écologie des autres : l'anthropologie et la question de la nature, Ed : de la maison des sciences de l'homme, Paris, 2016.
16. Rédigé par un groupe de chercheurs, L'anthropologie de la Méditerranée, Maisonneuve, Maison méditerranéenne des sciences de l'homme, Paris, 2007.
17. René Basset, La religion des Berbères (De l'antiquité jusqu'à l'islam), Edition : Tafat et Essai, Alger, 2011.

4/ المصادر والمعاجم :

1. القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.
2. إسماعيل بن حماد الجوهري، معجم الصحاح/تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، الجزء 1، دار العلم للملايين، بيروت، دت.
3. ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة محقّقة، دار المعارف، القاهرة، 2007.
4. السيّد محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس، ج12، تحقيق: مصطفى حجازي، مراجعة: عبد الستّار أحمد فرج ، مطبعة حكومة الكويت/المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1973.

5/ المقالات والمجلات :

1. حسين فهيم، قصّة الأنتروبولوجيا: فصول في تاريخ الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، العدد 198، الكويت.
2. عبد الحميد يونس، الفولكلور والميثولوجيا، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد: الأوّل، الكويت، 1972.

6/ المواقع الإلكترونية :

1. محاضرات عبر الخط قدّمها الأستاذ الدكتور: سفيان ميمون، قراءة في الاتجاهات والنظريات الأساسية في الأنتروبولوجيا، بتاريخ: 4 مايو 2012، https://www.politics-dz.com